كروان السكري

لامار

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

تذكر أنك حملت هذا الكتاب من موقع بستان الكتب

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

لامار
(فنتازيا وطنية)
كروان السكري

دار إي-كتب
لندن، شباط – فبراير 2018

LAMAR
By: Karawan Sukkari
All Rights Reserved to the author ©
Published by **E-Kutub Ltd**
& Distribution: Amazon, Google Books, Play Store
e-kutub.com
ISBN: **9781780581422**
Second Edition
London, Feb. 2018
** * **
الطبعة الثانية،
لندن، شباط – فبراير 2018
لامار
المؤلفة: **كروان السكري**
الناشر: E-kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في انجلترا برقم: 7513024
© جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة
لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب إلكترونيا أو على ورق. كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.
أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.
إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة اخرى غير موقع الناشر (إي- كتب) أو غوغل بوكس أو أمازون، نرجو إشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة، وذلك بالكتابة إلينا:

:

:

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

لامار.. الوطن
عشقه يتخطى الحياة والموت
ويحول عاشقه الى بذرة الحياة الكونية الأبدية

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفصل الأول

كان الحصان يعدو مسرعاً كرمح يشق الهواء مخلفاً وراءه زوبعة تعصف بالشجر فتهز الأغصان وتقذف بأوراقها في المدى قبل أن تستقر على الأرض، وكلما أبطأ لكزته لامار بقدميها فيزداد سرعة وجنوناً وينهب الأرض بحوافره على الطريق الترابي الممتد والمحاصر بأشجار السرو والصفصاف المتطاولة إلى السماء.

كان الخيل يغير على الطريق ويطوي المسافات كالبرق ويقذف بجسدها النحيل فوقه مثل كرة. وتارة تلمح الأشجار مهرولة إلى الخلف وكأنها دخلت في سباق معاكس للوقت لتتحرر من ثباتها ووقوفها الساكن فوق الأرض، وتارة تبرز في الأفق الفيللا الضخمة المترامية أو "القصر" كما يسميها أصحابها، ثم تختفي خلف التلال التي تبتلعها حيناً في علوها وتتقيؤها حيناً آخر في انخفاضها. هناك حيث ثروتها التي لا تملك والسجن الأنيق، حيث كل شيء ولا شيء.

تزداد سرعة الخيل فتلسع الريح الباردة وجنتيها وتحث الدموع في عينيها ويطير على متن الهواء شعرها الطويل الذي جمعته في قمة رأسها كذيل الحصان تتأرجح فيه سنوات عمرها العشرون. يتبارى ذيل الحصان في شعرها مع ذيل الخيل الذي تمتطيه في التحليق ورسم مشهد الجموح.

"لن تقصي شعرك الجميل، يا صغيرتي" قالت أمها وهي تمشط شعرها يوماً، كانت في السادسة من عمرها "سيبقى رفيقك إلى الأبد".

تبحث في أعماق البرد والوحدة عن دفء اليدين تمسحان على رأسها وتبثان الطمأنينة في أعطافها. رحل الدفء منذ أن رحلت إلى السماء مع أبيها، كما قالوا لها بعد حادث السيارة. لم تفهم هذا الرحيل حينها وكيف يغادر الناس ولا يعودون.

لا يزال القصر يظهر ثم يختفي في الأفق فوق التلة البعيدة كلما أمعن الحصان هبوطاً أو نزولاً مع تعرجات الطريق، والحدائق الغناء تتهادى بخيلاء حول البناء الضخم الذي تمتد إلى خلفه حقول الأشجار المثمرة كأشجار الجوز واللوز والمشمش الهندي والتفاح والتوت، وعلى يساره يتعرج الطريق الزراعي موغلاً بين البساتين المتشابكة، وينتصب عدد قليل من الفيلات إلى يمينه على مسافة غير بعيدة فوق التلال. تطل واجهة القصر الأمامية على الطريق السريع الذي تُفضي إليه من أسوار البناء ممرات حجرية طويلة وأخرى مكسوة بالحشائش.

عمها يتصدر طاولة الطعام الفخمة ذات اللون البني المحروق المحاطة بكراسي تطاولت مساندها في شكل مثلثات نقشت عليها رسوم فرعونية مذهبة وحُفر الخشب البني في أطرافها في شكل صقور.

صورة عمها أمام عينيها تتراقص في المدى. يحمل وجهه لمحات من وجه أبيها بعينيه العسليتين وشعره البني الكثيف وقامته المديدة. يتأفف دائماً من زيادة

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الملح في الطعام أو من قلة فيه، أو عدم طهي الأرز كفاية، أو أن الصلصة غير متماسكة أو أي شيء آخر، فينادي الطباخة ليعنفها. ثم يلوم زوجته، كما هو دأبه دائماً، لأنها لم تشرف على تحضير الطعام في المطبخ. المهم أنه يتحرى دائماً عن علة في الأكل، حتى وإن لم توجد، ليفسد الأجواء ويزيد من تجهمها. عقدة حاجبيه حفرت أخدوداً عميقاً في جبينه أعلن استقرار العبوس في وجهه وتحجر الملامح المزمن، لا تذكر لامار أنها رأته مبتسماً. ربما مرات قليلة جداً. اقتضاب حديثه يولد قشعريرة في جسدها، والأجواء المتوترة في حضرته تكبلها وتخرسها وترعبها.

اعتادت لامار أثناء تناول الطعام، الجلوس على الكرسي المخصص لها وتجنب النظر في الوجوه. تثبت عينيها بين الفينة والأخرى عندما ترفعهما عن طبق الطعام على الستائر المخملية الخمرية اللون والمسدلة على أطراف النوافذ الواسعة التي تتهادى فوقها ستائر بيضاء شفافة تجعل المنظر خارجها ضبابياً حالماً لا ينتمي إلى إحباطات المكان، فيقذف بها إلى عالم خيالي تسرح فيه بعيداً، أو تحدق في كرسي أو كنبة عريضة حفر إطارهما البني المذهب بإتقان يدل على مهارة صناعه وضعا في زاوية بغرفة الاستقبال التي يفصلها عن غرفة الطعام قوس حجري ضخم ينتصب عند طرفيه تمثالان برونزيان لفتاتين عاريتين تحملان شمعدانين. تمعن النظر داخل صمتهما الجامح.

الصمت يعرش على الجدران والهدوء يصخب في عقلها وحديثها لا يسمعه أحد. الطقوس تنعي الساكنين والفراغ يسرح في الزوايا والعيون، ووجودهم باهت يتلاشى في العدم. تتحدث دون توقف إلى نفسها خشية الجنون ففي حديثها مع النفس سلوى ورفيق.

زوجة عمها صامتة، تسكب الطعام في صحنها الهوينا وتمضغ اللقمة ببطء متحاشية النظر في وجه زوجها. أحياناً تحث ابنتها رزان على الإسراع "مدرس الرياضيات على وشك الوصول".

فراس منهمك بالطعام ينظر إلى أمه ثم إلى أخته بين الفينة والأخرى ثم لمحة خاطفة إلى لامار دون أن ينبس بكلمة. ملامحه مثل ملامح أبيه بدأ يسكنها التحجر، قلما يبتسم، قلما يعجبه حديث، قلما يعجبه شيء. بالأمس رأته يدخل كراج الفيللا بسيارة جديدة فارهة. ترجل منها ودار حولها متأملاً ثم توجه إلى الداخل يصفر لحن أغنية.

تلكز الحصان ثانية بقدميها. يجب ألا يبطئ. يجب أن يبتلع المسافات على الطريق الطويل اللامنتهي. فالسرعة القصوى تفكك سلاسلها وتطلقها إلى مدارات تحمل نفحات من حرية. إنه شعور التحدي الذي يراودها دائماً ويضعها أمام خيارين إما التمرد أو إنهاء كل شيء. في هذه اللحظات هو الخيار الثاني، الأسهل والأقرب. الموت مع حصانها الذي تحب. هو وحده من يفهمها ويمكن أن

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

يستجيب لها ويطير بها إلى حيث تروم.

كان صغيراً عندما جاء به أبوها "هذا المهر الصغير هديتك في عيد ميلادك، يا حبيبتي.. اعتن به". كبرا معاً وربطهما عشق مزمن، ولعله اليوم يفهم سرها ويدرك جموحها فيعدو بجنون يسابق الريح والزمن ويطيح بالذاكرة الجامدة. لم يعد راغباً في التوقف. يقتحم الهواء والمدى ويجمح لكي يموتا معاً كما عاشا معاً. تعجلت وتعجل النهاية. يتعثر ببعض الصخور فتطير من فوقه في الهواء، ويرتفع الحصان ثم يسقط بقوة متشقلباً مرة ومتدحرجاً أخرى متكوراً يرتطم رأسه بحجارة الأرض، ومازالت في الهواء داخل برزخ من شبه الوعي وشبه الإغماء. إنها اللحظة الفاصلة بين الكينونة والزوال، حيث تغدو الحياة نقطة باهتة في دفتر الكون الهائل، حيث ينعدم الإحساس بالسرعة وتقفز السنون لاهية من قطار الزمن، حيث الخط الفاصل بين الوجود والعدم، لكنَّ ارتياحاً ينبعث من الزوال.

اختفى فجأة كل شيء الوجود والعدم والكون والأرض. انفصل شيء ما عن جسدها. شيء خفيف لا تدري ما هو. صارت هي ذاك الشيء تحولت إلى ما يشبه ورقة شفافة أو فراشة صغيرة تطير بخفة وحرية في الهواء. أحست أنها تحلق بسرعة فائقة فوق الطريق الزراعي والحقول والبساتين الممتدة. كانت ترى السيارات على الطريق السريع والناس يصعدون إلى الحافلات الصغيرة، ثم بدأت تسقط لكنها لا تدري كنه هذا السقوط. شعرت أنها تهوي من الأسفل إلى الأعلى وليس العكس. أيقنت في نفسها أنها ميتة. أحست لوهلة بالخوف، ولكن لدهشتها تحول الخوف سريعاً إلى راحة مطلقة، إلى سلام داخلي، رغم رؤيتها لجسدها مستقراً على الأرض دونما حركة. لماذا لا تأبه له؟ لماذا لا تريده؟ تجردت منه ومن كل عذاباتها، تحررت من قفص اللحم والعظام الذي كان يخنقها. ها هي تسبح في الفضاء بحرية. عجيب حالها! شيء ما يدعوها للعودة إلى ذلك القفص ثانية. يشدها إليه. إنها تقاوم "لا أريد العودة.. لا أريد". سحر جميل أبطل فجأة على وقع كلمات:

"هل أنتِ بخير؟ هل تسمعينني؟ افتحي عينيك.. هيا افتحي عينيك.. هل تسمعينني؟".

قطرات ماء تتساقط على وجهها والصوت الهامس يكرر نفس الكلمات.

تفتح عينيها بصعوبة فترى وجهه خلف غباشة قريباً من وجهها. عينان خضراوان تتفحصانها وابتسامة على شفتين تحثانها على العودة ودوار في رأسها. تجلس بتثاقل تتحسس جبينها المضمد "أين أنا؟ ماذا حدث؟".

شرح لها الحادث وبأنها سقطت من فوق الحصان فوق كومة قش بعد ارتطامها بأغصان شجرة "أنقذتك العناية الإلهية.. الحمد لله على سلامتك.. كنت غائبة عن الوعي منذ نحو ربع ساعة.. ".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

سكت قليلاً وهي تنظر في وجهه بإعياء ثم أردف "هناك جرح عميق في جبهتك وبعض الجروح البسيطة في ذراعيك... لم أجد ضماداً.. آسف.. مزقت قطعة من كُمّ قميصي وجعلتها ضماداً لجرحك النازف.. ولكن يجب رؤية الطبيب في الحال.. للتأكد..".

"شكراً لك.. ولكن.. أين هو رمح؟"

"أتقصدين الحصان؟"

كانت جروحه خطيرة، كان ينظر إليها حزيناً ممدداً على أحد جانبيه على الأرض يلهث بصعوبة. رأت دمعة في عينه والناس حوله ينظرون. انحنت فوقه باكية تتوسل إليه ألاَّ يتركها "لا يا رمح لا تتركني يا رمح.. أرجوك لا تتركني.. "

بكت بحرقة. غرقت في طوفان الدموع وهي تتمتم بصوت خافت "لا تتركني يا رمح وحدي.. إنك صديقي الوحيد في هذه الحياة.. ليس لي سواك... أرجوك يا رمح لا تذهب.. أنا قتلتك يا رمح أنا السبب.. كنت أريد أن نموت معاً. خذني معك يا رمح. لا.. لا تذهب من دوني... ".

ما زال رمح ينظر إليها بثبات، يغمض عينيه قليلاً ثم يفتحهما مجدداً لا يحيد بعينيه عن وجهها. تواصل البكاء بصوت خافت، يغمض عينيه فتهمس في أذنه "رمح.. رمح.. لن أنساك يا رمح..". يفتح عينيه لآخر مرة وكأنه يودعها ثم يغمضهما ثانية. لم يعد يفتحهما.

تحترق "يا إلهي كم هو قريب هذا الموت! قريب إلى حد يكشف تفاهة حياتنا.. قريب إلى درجة نكفر بولادتنا، قريب إلى حد نهلع من وجودنا ومن اللاجدوى في صراعنا من أجل البقاء.. كنتَ قريباً مني.. أيها الموت، قرب الجفن من العين.. لماذا لم تأخذني إليك؟.. لماذا تركتني وأخذتَ رمحاً ورحلت؟ أيا موتاً ضنَّ علي بالموت.. وأنت تعرف أني أردتُ امتطاء صهوتك لأنجو من هذي الحياة.. ".

تتأمل رمح طويلاً ثم تتمتم "وداعاً يا رمح.. نم بسلام.. نم بسلام يا رمح.. ".

مات رمح وهي جاثية تلف رأسه بذراعيها وتتحسس جلد رقبته اللامع وما زالت تجهش باكية.

"لم أكن راضياً عن ركوبك الخيل في يوم" قال عمها وقد ازدادت تقطيبته تقطيباً. "كان من الممكن أن تودي بنفسك إلى التهلكة.. يجب أن تكوني ممتنة لنجاتك وخلاصك من هذه الدابة".

لم تجب. حملت لامار حزنها إلى غرفتها وانزوت فيها. لم يكن يراه سوى دابة ولم يكن يراها سوى كائن يأكل ويشرب وينام توفرت له أسباب الراحة وتنتهي الأمور هنا. عمها يقسِّم الأشياء إلى أبيض وأسود وهو فقط الذي يقرر ما هو الأبيض وما هو الأسود.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

تتهتك وتتآكل مرتعشة من هول هذا الغياب، غياب رمح رفيق الطفولة والشباب. تسدل السماء ستاراً آخر أسود فوق حياتها وتزداد المساحات المقفرة امتداداً. تغفو على وقع حوافره وتصحو على صوت صهيله يهز سريرها وكيانها.

خلقوا عبثاً، معظم البشر كائنات دونية لا تستحق الحياة هكذا يقول عمها. الحياة وجدت لمثله فقط والباقون جاؤوا في غفلة من الزمن ولا بأس أن يتحولوا إلى دمىً يحركها حسبما يشاء بخيوط سلطته.

كانت الأبدان تهتز والجلود تقشعر لمجرد ذكر اسمه. يتهامس الناس عند سماع اسم "أدهم الجمري، أبو فراس".

كان اسماً ممقوتاً ومرعباً ارتبط بالعنف الدموي والبطش محصناً من المحاسبة، متنمراً وقاسياً طلق الرحمة طلاقاً بائناً ومنح المشاعر النبيلة إجازة مفتوحة.

فقط في ذلك اليوم منذ زمن بعيد مسح على جبهتها بابتسامة باهتة عندما كانت الحمَّى تلهب جسدها الصغير وقال الطبيب إنها قد تفارق الحياة، يومها انقشع السحاب الداكن عن وجهه للحظات وأطلت غمرة محبة من عينيه وقال مبتسماً "ستقهرين المرض، يا صغيرتي لامار.. ستشفين". شُفيت ولم تعد تلك اليد تمتد إليها منذ ذلك الحين. "ليتك يا عمَّاه تتعب من عبوسك لتتبدى لمحة من جمال فيك".

في زمن مضى كان اسماً مبهماً، رجلاً مغموراً لم يكن شيئاً، موظفاً بسيطاً في شركة حكومية ينتظر راتبه آخر كل شهر ومساعدة مادية من أخيه ليقوم على إعالة زوجته وولديه. ورغم الخلافات الكبيرة بين الشقيقين لم تتوقف مساعدات والد لامار لعائلة أخيه يوماً. كان يدفع آجار شقته ويرسل له مبلغاً شهرياً يضيفه إلى راتبه فيلبّي طلبات زوجته وأولاده التي لا تتوقف، فينعم بنوع من البحبوبة في العيش. بعد موت والديها كانت لأدهم الجمري الوصاية عليها والإشراف على ثروتها التي تركها والدها، وهو العم والقريب الوحيد المخول بذلك حسب القانون. سرعان ما انتقل أدهم مع عائلته إلى الفيللا وراح يدير شركة أخيه الراحل. وما إن وصل ابنه فراس إلى سن الخامسة والعشرين حتى أصبح المالك لزمام الأمور فيها بعد عودته من الخارج. كانت لحظة تحول في حياة أدهم الجمري قلبت كل شيء رأساً على عقب. مصنعا الحديد والأخشاب أصبحا مصانع متعددة، والشركة التجارية افتتحت فروعاً لها في طول البلاد وعرضها وفي الخارج. مشاريع وأموال تتدفق وصفقات مشبوهة اعتمد فيها على الرشى وإسكات مسؤول هنا ووزير هناك، مرة بالتهديد ومرة بالمناصفة لتمرير شحنة أو صفقة غير قانونية، وأخرى باختفاء أو حتى قتل من يقف عقبة في طريقه. طالت أذرعه الأخطبوطية تجار الحديد والإسمنت والأخشاب ثم شركات الإليكترونيات والسيارات وكل مصادر الأعمال والربح في البلاد. وكلما حاولت جهة ما قص

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أذرعه الكثيرة المتطاولة نبتت له مئات الأذرع الجديدة وتمكن من الإفلات ببراعة معتمداً على علاقاته المتشعبة بمسؤولين في أجهزة الدولة ومحامين وقضاة متنفذين ومسؤولين.

توسع بالفيللا فبنى أقساماً إضافية ضمت ثلاث قاعات استقبال وثلاث غرف طعام ومطبخين وثلاثة حمامات في الطابق الأرضي، فضلاً عن غرفتي مكتب له ولابنه فراس. وكان فيه من قبل غرفتا استقبال وغرفة طعام واحدة ومطبخ. وفي الطابق العلوي ازداد عدد غرف النوم ليصبح سبعة بعد أن كان أربعة فقط إضافة إلى خمسة حمامات. جاء بأثاث الفيلا من ايطاليا وفرنسا ومن الهند والصين ثم استولى على مساحات من الأراضي ملاصقة للقصر وحوَّلها إلى حدائق تابعة له، واشترى فيللتين أخريين لابنته وابنه في مكان قريب.

هذه المرة شرب مع قدري جاسم نخب نجاحه في الحصول على صفقة حديد جديدة بعد مضاربة كشف له جاسم بعضاً من أوراقها السرية ليساعده في إتمام الصفقة والفوز بها على حساب مستثمرين آخرين. كان الجمري يبتسم ابتسامة ماكرة وهو يضع حقيبة صغيرة رُصَّت داخلها أوراق البنكنوت من فئة الألف دولار على طاولة المطعم قائلاً بهمس:

- خمسمائة ألف دولار.. أتعابك.. ولكن لا تنس تأمين الموافقة من وزارة الإسكان على بناء الفندق في قطعة الأرض التي حدثتك عنها...

توقف قليلاً ثم قال غامزاً:

- وكذا صفقة السلاح..

- بالتأكيد.. نحن شركاء في المشروعين.. أنت تعرف أن الأرض مصادرة من قبل الدولة بوضع اليد.. ولا ندري أي مسؤول ابن حرام استطاع أن يصدر هذا القرار.. سأعمل كل ما في وسعي.. موقعها استراتيجي وتستحق التضحية بشوية أرانب لإسكاتهم.. كلُّه بياكل.. ولا يهمك.. شكراً على المبلغ.. أما الصفقة الأخرى فتحتاج إلى تدابير احترازية لإدخالها سراً بالليل بعد وصول السفينة... كلُّه بياكل.. هاهاها..

استفاد أدهم من علاقاته المتشعبة مع أشخاص لهم من القوة والسلطة الكثير، واستطاع في الوقت نفسه أن يوثق ارتباطه بهم ويكتشف دهاليز حيلهم ودهائهم في السيطرة على مرافق الحياة الاقتصادية والأمنية، فكانوا سنداً قوياً له. ومن خلالهم ثَبت أقدامه بقوة على الساحة، فأسس امبراطورية تجارية وتحوَّل ليكون أحد مافيات الفساد والتهريب في البلاد متجاوزاً كل القوانين.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفصل الثاني

وقف كنان يتأمل الفيللا الضخمة من بعيد. كثيرون يتحاشون المرور قربها، ومن يمر تلاحقه نظرات الحراس المسلحين إلى أن يبتعد.

راح ينقِّل نظره بين أسوارها الحديدية السوداء اللامعة التي تسلقتها أزاهير الياسمين والفلّ واللبلاب والورد الجوري والبلدي فغطت قسماً كبيراً منها. لم يفكر يوماً أن يتأمل هذا البناء الضخم ولم يكن يأبه له، لكنه اليوم يتفحص كل جزء فيه، فعبْر تلك البوابة السوداء العريضة المعتَّقة بماء الذهب حيث تعانقت العروق الذهبية في شكل أزهار وثعابين وأوراق غابت تلك الصبية الشاحبة يوم ساعدها في الوصول. سكنت صورتها في عينيه. إغماضة جفنيها سكونها النائم نحيبها شجنها حصانها حزنها نداؤها وحدتها. كيف يشكو الوحدة من يعيش في ذلك القصر؟ كيف يحزن من ينعم بكل هذا الثراء؟

سمع كنان أن لدى أدهم الجمري ولداً وبنتاً لكنه لم يرَ أياً منهما في يوم رغم أن منزله ليس بالبعيد. هو يقطن في منطقة على الجانب الآخر من الطريق السريع حيث تنتصب بعيداً بنايات قديمة غلفها السواد الإسمنتي والغبار ولم تعبأ الحكومة يوماً بتحسين منظرها القميء. وتقيم في شققها الصغيرة عائلات فقيرة بعدد أفراد كبير. كان كنان يسكن وحيداً في شقة متواضعة من غرفة واحدة في مبنى إضافي على جانب إحدى البنايات. غادر بلدته الصغيرة ليلتحق بالجامعة في العاصمة. وبعد أن حصل على شهادته في اللغة العربية وآدابها عمل مدرساً في مدرسة ثانوية في المدينة الكبيرة. كان يركب الحافلة الصغيرة أو "الميكرو" ذهاباً وإياباً على طريق يستغرق نحو نصف ساعة من الزمن. ولطالما تمنى أن تتوفر له وسيلة نقل أخرى تُجنب قامته الطويلة صعوبة الصعود والنزول منحنياً كي لا يرتطم رأسه بسقف الحافلة المنخفض. إذ لم ينجُ مرات عدة من تلقي خبطة على رأسه بالإطار الحديدي للباب جعلته يتحسس رأسه ألماً على طول المسافة من موقف الحافلة وحتى وصوله إلى مبنى المدرسة في أحد الأحياء الشعبية، ودخوله الصف حيث يحاول التظاهر أمام طلابه بأنه على ما يرام، وفي داخله قرف من كل شيء. وفي مرات حلَّت همومه المادية ومشكلاته تعتيماً كاملاً في رأسه، فنسي جملة أو بيت شعر أراد كتابته على السبورة، ووقف لبرهة وظهره إلى الطلاب يحاول التذكر وسط همهماتهم.

لطالما تمنى ألا يأتي الصيف حاملاً الحرارة الخانقة فيتخرش أنفه ويُزكم برائحة العرق النفاذة المنبعثة من راكب بجانبه. ولطالما سئم من راكب خلفه ينخزه في كتفه ليتسلم منه نصف ليرة ويسلمها بدوره لراكب أمامه فيما تتابع عيناه بملل جولة النصف ليرة من يد إلى يد إلى أن تصل إلى السائق

مرت أيام طويلة دأب خلالها على الوقوف بعيداً فوق التلة يتأمل الفيلا علَّه يلمح تلك الصبية في حدائقها. علَّها تتجول فوق تلك التلال التي وطئتها يوماً مع

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

حصانها وغادرتها حزينة.

كان رأسه مزدحماً بالأسئلة، كيف يمكن لصبية بمثل هذه الرقة والشفافية والجمال أن تكون ابنة لرجل بمثل هذه القسوة والجبروت؟ كيف يمكن لفتاة سكنت الوداعة وجهها أن تكون ابنة لرجل بمثل هذه السمعة الرهيبة؟ موت حصانها كشف أمامه أستاراً توارت خلفها أحزان وأحزان.

لم يشهد مثل هذه اللوعة والشجن. كانت مع حصانها في لحظات رحيله لوحة حزن مفجع رسمتها ريشة الحياة بإتقان. كيف له أن ينسى تلك اللوحة المعبرة؟ غمرت قلبه بفيض من مشاعر لم يختبرها من قبل وهو الذي أدمن الكتب والقصص والأفلام والصحف وقرض الشعر الحزين في قفص معاناته ووحدته.

كان يسأل نفسه ما الذي يحثه على الانتظار فوق التلة القريبة من قصرها؟ لماذا لم يعد قادراً على مسح تلك الصورة من ذاكرته؟ فضول مستعص؟ بارق أمل مستحيل؟ جنون؟ وهم في رأسه؟ حلم مخادع سرعان ما سيقذف به إلى قيعان الواقع فيتكسر على صخوره؟

شتان بين حقيقتين هو من عالم القاع وهي ترفل فوق السحاب. تتسلل إلى ذاكرته كنسمة ربيعية ويتسلل معها الرعب والجنون، وهذان أشد وطأة عليه. وسرعان ما يطغى منظر الحرس والسلاح على الصورة الحزينة. لعلها نسيت وجهه. مرَّ كأي عابر سبيل في طريقها.

يرى من بعيد أشخاصاً يستقلون السيارات الفارهة عند المواقف المتعددة للقصر. ولكنه لم يرها في يوم. رأى فتاة تخرج من القصر إنما لم تكن هي. أين اختفت؟ هل يمكن ألاَّ تكون ابنة أدهم الجمري وكانت ضيفة في قصره؟

احتار في الأمر إلى أن يئس وقرر عدم الذهاب إلى التلة بعد اليوم. لا يريد أن يكون ألعوبة في ذاكرة الصور. لا يريد أن يستسلم لوهم.

عاقبها عمها بعدم الخروج من الفيللا لمدة شهر لمخالفتها أوامره وركوبها الخيل على الطريق الزراعي، وكان سمح لها بركوبه في نادي الفروسية حيث تدربت لفترة طويلة. استغل عمها عطلة الجامعة في الربيع لكي ينفذ عقوبته. قال وهي تقف أمامه مطرقة الرأس "كانت أوامري أن تمتطيه في النادي فقط.. وليس في أي مكان آخر.. مخالفة أوامري في هذا البيت والعصيان يعني العقوبة.. يجب أن تتعلمي الطاعة واحترام من هو أكبر منك سناً..".

ما قصة هذا التحدي في عقلها؟ كل ما تخشاه أن يتحول تحديها إلى واقع ومجابهة "ما أحقر الاحترام القائم على الخوف يا عمَّاه.. ما أبشع الطاعة التي تقتل النفس.. ".

دفنت لامار نفسها وحزنها في غرفتها كما هي عادتها في كل مرة. تنظر بسأم في الصور واللوحات المعلقة على جدران الغرفة الواسعة. عبر النافذة

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

العريضة ترى فراساً من بعيد يسبح بعنف في بركة السباحة جيئة وذهاباً بدون توقف. يضرب الماء بيديه ورجليه بقوة فيقذف برذاذه إلى الأعلى زبداً وفقاعات وألواحاً مائية تتكسر داخل أمواج عنفه وفيضانات قسوته.

النافذة العريضة تعانق الضياء وتنثر ومضات غبطة خفية داخلها أحياناً، إنما اليوم لا شيء يخفف من مصابها الكبير بموت حصانها، إنها تفتقده كثيراً. كان الذكرى الحية الباقية ممن رحلوا. كان حياة مفعمة بالحياة تقربها من وجودهم اللاموجود. كان نفحة من رائحتهم ولم يكن صورة أو رسماً أو لوحة صماء، بل كان حقيقة رحلت. لطالما تمنت أن تتبدل الابتسامة الدائمة في وجه أمها تقطيباً أو أن تنظر عيناها الزرقاوان في الاتجاه الآخر بدل أن تلاحقها بنظراتها ليل نهار دون كلل، أن تمَّل عيناها الناعستان من النظر إليها. لماذا لا تحيدان عنها؟ لماذا لا يتطاير شعرها العسلي الجميل المسدل أبداً فوق كتفيها؟ تريدها حية.. تتحرك.. تنظر.. تغادر الصورة تعانقها تتحسس شعرها بيدها الدافئة.

لماذا لا ينظر أبوها إليها؟ لماذا تعلقت عيناه في الأفق شامخاً؟ لماذا لا يبدل بزته الرمادية؟ لم لا يقرر يوماً أن يبتسم لها؟

يحلِّق سكون وملل فوق كل شيء وينتشران في الهواء والغبار والأنفاس، إنما ثمة ما هو على وشك الانفجار بين لحظة وأخرى. لا تدري كنهه، لكنه إحساس يسكنها منذ زمن.

تجنبت الجلوس إلى طاولة الطعام مع عائلة عمها وتذرعت بفقدان الشهية مرات كثيرة غير أنها اضطرت للنزول من غرفتها إلى القاعة المستديرة حيث تمتد طاولة الأكل العامرة بكل أصنافه عندما جاءها الأمر من عمها عن طريق الخادمة "سيدتي إنهم ينتظرونك في غرفة الطعام، أسرعي.. ".

عندها تحس بكفيها باردين رغم حرارة الجو وتنتابها رعشة خفيفة.

تجلس بهدوء. تملأ الملعقة ببعض الأرز وتقربها من فمها من دون شهية. فراس يرمقها بطرف عينه ثم يغرق في طبقه ويلتهم محتواه بنهم. رزان تنظر إليها طويلاً قبل أن تقول:

"كيف أنتِ اليوم؟ أحسن حالاً؟ تبدين شاحبة.. هل ستقتنين حصاناً جديداً؟".

لامار لم تجب. نظرت إليها وهزت رأسها نفياً وواصلت مضغ اللقمة التي كادت تقف في حلقها وتخنقها.

زوجة العم رفعت أحد حاجبيها ومطَّت شفتيها قليلاً ازدراء، ثم وجهت كلامها إلى رزان:

"بعد غد سنكون في باريس. جهزي أمتعتك واستعدي للسفر".

هتفت رزان "رائع.. وسأجهز قائمة المشتريات أيضاً.. لامار.. هل يلزمك شيء

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

من باريس؟".

هزت لامار رأسها نفياً ثانية، ونظر فراس إلى أخته مع ابتسامة باهتة وقال:

"ألا تشبعين من الملابس والأحذية والإكسسوارات.. و ووو؟".

أجابت محتدة "وأنت ألا تشبع من تغيير السيارات والكومبيوترات والموبايلات والساعات.. ووووو؟"

نظر الأب شزراً إلى كليهما فانتهى الحديث على الفور. كان يشعر بسعادة ضمنية لحصول رزان وفراس على كل ما يرغبان به. فتحقيق سعادتهما بإغداق المال عليهما، يمنحه راحة نفسية كبيرة ويرضي نزعة الغرور والسطوة في داخله. كان حبه الكبير لهما يجبره على تجاوز أخطائهما، فهو يرى أن القدر منحه هذه الثروة الطائلة والمكانة الكبيرة من أجلهما فقط وليتفانى في تلبية مطالبهما التي لا تتوقف عن حد، لكنه لم يكن ليهبط من برجه العالي لعقد صداقة تقربه منهما وتزيد من الألفة بينه وبينهما، ربما لقصور معرفي ونفسي أو سطحية في التفكير جعلته يرى أن إغداق المال عليهما كافٍ لبناء علاقة أبوية صحيحة.

ساد صمت تخترقه قرقعة الملاعق داخل الصحون بين الفينة والأخرى.

انسحبت لامار إلى غرفتها. كانت رزان التي تصغرها بعامين، تستعد لامتحانات الشهادة الثانوية بعد شهر، كانتا أكثر قرباً قبل سنوات عديدة تلعبان معاً وتركضان معاً في القصر والحديقة، وفراس الأكبر سناً يقضي معهما أوقاتاً في تسلق الشجر وملاحقة القطط والاستمتاع بالسباحة في مسبح القصر.

كانت تشرف على تربية الأطفال الثلاثة مربيتان إحداهما مغربية والأخرى فيليبينية، تتابعان دراستهم ونظافتهم ولهوهم وكل ما يخصهم. وكان في القصر طباخان وعدد من الخدم.

لطالما شعرت لامار بالطمأنينة بصحبة المربية المغربية مريم التي كانت في حوالي الأربعين من عمرها وأكثر قرباً وتوداً إليها. اعتادت منذ صغرها الجلوس معها في الغرفة الزجاجية على جانب الحديقة في الشتاء أو تحت ظل شجرة الزيزفون في الصيف للإصغاء إلى حكاياتها الكثيرة والممتعة.

ولا تزال لامار تذكر حكاية قصر التماثيل الحجرية التي روتها مريم لها منذ زمن بعيد عندما كانت في السابعة من عمرها. تذكرها بكل تفاصيلها حتى أنها كتبتها في دفتر مذكراتها قبل سنة.

حكاية ملك وملكة عاشا في قصر عظيم. وكان الملك ظالماً ومستبداً لم يشعر يوماً بعذابات الناس. وفي يوم تسلط على الملك والملكة ساحر شرير بعد أن أخبرته بلورته السحرية أن طفلاً سيولد للملك وسيقتله عندما يصبح في العشرين من عمره. أمر الساحر الملك والملكة أن يسلماه الوليد على الفور

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

لكنهما رفضا رفضاً قاطعاً، فحوَّلهما مع كل من في القصر إلى تماثيل حجرية، ثم أخذ الطفل وطلب من خادمه أن يقتله. الخادم أشفق على الطفل وتركه في الغابة حياً وأبلغ الساحر كذباً أنه قتله. راحت ظباء الغابة ترعى الطفل وتدرُّ الحليب من أثدائها في فمه، إلى أن وجده أحد الفرسان فأخذه إلى بيته في قريته الصغيرة وقام على تربيته حتى أصبح يافعاً وبلغ العشرين من عمره. دربه الفارس على فنون القتال وزرع فيه الشجاعة والإقدام.

سمع الفتى كثيراً عن قصر التماثيل الحجرية في المدينة فذهب لرؤيته في يوم. وهناك شاهد امرأة عجوزاً جالسة على الأرض قرب حديقة القصر تندب حالها والزمان الذي قسى. قصَّت عليه الحكاية التي يتداولها القاصي والداني، لكنها بكت عندما تحدثت كيف قتل الساحر ابنها الذي كان خادماً لديه لاكتشافه أنه لم يقتل الأمير الصغير بعد أن أبلغته بلورته السحرية أن الطفل لم يمت وأن الخادم تركه في الغابة. في تلك اللحظة تذكر الفتى كلمات الفارس وكيف أنه وجده في الغابة وربط ما بين ما تقوله المرأة العجوز وما حدث له عندما كان صغيراً. وكانت تلك لحظة حاسمة في حياته إذ سرعان ما أيقن أنه هو نفسه الأمير الذي أراد الساحر قتله. نظر إلى تمثالي الملك والملكة حزيناً وقرر أن يقتل الساحر الشرير الذي قيل إن روحه تسكن في ببغاء يمتلكه، وإنه يسكن في قصر كبير فوق جبل بعيد تحرسه الجنيات. عندما اقترب الأمير من قصر الساحر رأته الجنيات من شبابيك القصر وقررن تحويله إلى كلب على الفور. كانت أشكالهن مرعبة إنما بلمسة واحدة من عصا سحرية يمتلكنها تحولن إلى فتيات في منتهى الجمال والرقة، يرتدين الملابس الحريرية الشفافة والزينات الذهبية التي تأخذ بالألباب. وقف الأمير في القاعة الفخمة يتلفت حوله متفحصاً المكان وإذا بالفتيات يهبطن الدرج على أنغام موسيقى عذبة يعزفنها على قيثارات وهن يتمايلن ويرددن أغنية حالمة. أحطن بالأمير من كل جانب بعد أن جلس على أريكة وثيرة. وبين اللحظة والأخرى كان يحس أنه سيغرق في النوم وسرعان ما يفتح عينيه خشية حدوث شيء ما. وعندما كان على وشك الإغفاء فعلاً وأغمض عينيه قذفت إحداهن بقيثارتها إلى أعلى لتحوله إلى كلب وإذا بالأمير يفتح عينيه فجأة ويصوب سهمه إلى القيثارة التي انفجرت وأشعلت النار في المكان. عندها عادت الجنيات إلى أشكالهن القبيحة من جديد وهن يصرخن بشكل هستيري خوفاً من النار ثم اختفين مع القيثارات فسارع الأمير إلى مهجع الساحر في الجهة الأخرى من القصر، وكان نائماً. دخل غرفته فسمع شخيره يتردد في المكان. بحث عن الببغاء ووجده في قفص قريب من سرير الساحر. أخرجه سريعاً وإذا بالساحر يستيقظ من نومه مذعوراً. راح الأمير يضغط على عنق الببغاء والساحر يدور في الغرفة ويصرخ كالمجنون واضعاً يديه على عنقه يكاد يختنق، إلى أن قتل الأمير الطائر خنقاً ورماه أرضاً وفي نفس اللحظة وقع الساحر ميتاً. ولدهشة الأمير اختفى الساحر والقصر، ودبَّت الحياة في التماثيل

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الحجرية بقصر الملك.

وهكذا التقى الأمير أمه وأباه وسلمه الملك زمام الحكم فحكم الأمير البلاد بالعدل وأحبه الناس.

كانت مريم تهمس في أذن لامار بعد الحكاية أن الظالم يعاقب دائماً وأنها عندما تبلغ العشرين ستتغير حياتها وسيحدث أمر ما كما حدث للأمير.

حدثتها مريم أحياناً عن الأعراس في البوادي المغربية التي جاءت منها وكيف تركب العروس الهودج الذي يحمل على الأكتاف أو على ظهر حصان حيث يطاف بالعروس في الأحياء المجاورة، وكانت تقول إن جدتها لم ترَ عريسها قط حتى يوم الزفاف. ولطالما عبرت لامار عن استغرابها. وعندما أصبحت في الرابعة عشرة من عمرها صارت تجادل بحماس في أنها ستختار زوجها بنفسها ولن تسمح لأحد بالتدخل في حياتها، فيما تتأملها مريم بصمت وابتسامة. حكت لها مريم مراراً قصة حبها لابن الجيران حامد في بلدتهم الصغيرة عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها وكيف أنها كانت تفكر في الهروب معه، وقالت إنه أحبها وكان فارساً مقداماً لكنه لم يتقدم لخطبتها. راحت تروي قصصاً خرافية حول علاقتهما وتعودت لامار أن تسمع تلك الحكايا، إنما كل مرة في حلة جديدة وسردٍ مختلف. وكلما كبرت أدركت أن ما ترويه مريم كان في كثير من الأحيان ضرباً من الخيال. قالت لها مرة إن حامد فتن لبَّ الحسناوات في المدينة لكنه لم يكن يلتفت إلى أي منهن لأن قلبه كان مولعاً بها. فتهز لامار رأسها وتقول "أكيد.. أكيد وكيف له أن ينسى حبه الأول مريم". وتحكي مريم أن حامد غادر البلدة لفترة من الزمن، وبعد عدة سنوات عاد وبرفقته سيدة غنية لكنها قبيحة. "تزوجها ليحصل على ثروتها.. ضحَّى من أجلي وصبر على قباحتها لكي يعود إليَّ وننعم بالثروة ".

تبتسم لامار وهي تدرك أن مريم تهرب من مرارة الواقع وتجبرها على الإنصات لها والاستماع إلى أوهامها حتى لا تئد أحلامها. كان إصغاؤها للساردة تظاهراً بتصديق الكذبة الكبيرة في نفس مريم، فتضحك وتسأل نفسها إلى متى ستظلان تنجرفان معاً في بحر الأوهام؟

على مر السنين راح التقارب بين الأطفال الثلاثة يتلاشى تدريجياً وصار لكل عالمه.

وكانت داليا زوجة العم تقضي أوقاتها غالباً مع صديقاتها في النادي يمارسن الرياضة أو تمضي نصف نهارها عند مصفف الشعر لتغيير لون شعرها كل حين من أشقر إلى أحمر إلى أسود إلى بني دون كلل، وفي كل مرة تطلب من مزين الشعر أن يبتدع لها تسريحة جديدة. تغير ملابسها أكثر من خمس مرات في اليوم الواحد وتقتني من الأحذية والفساتين ما توصلت إليه آخر صرعات الموضة لتدخل في منافسة حامية مع صديقاتها اللاتي اقترنَّ بأثرياء البلد وبمسؤولين متنفذين، وجئن للتفاخر بما يرتدين من ملابس فخمة ومجوهرات وحلي.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

اعتادت داليا أن تذهب بصحبتهن لتناول وجبات في المطاعم الفخمة بالفنادق الشهيرة في العاصمة. دخلت مرة إلى الفندق، تتبختر وتهز ردفيها يمنة ويسرة، وكانت ممتلئة الجسم قليلاً، بفستانها الخمري الضيق الذي ارتفع إلى ما فوق ركبيتها وأظهر تفاصيل جسدها، ترفع بيدها خصلة من شعرها الأشقر انسابت على جبينها ووجها، تُسمع قرقعة حذائها الفخم ذي الكعب العالي على الرخام اللامع في أرض المطعم، وفي نفسها خشية من أن تقع بسبب طول الكعب الذي لم يكن مريحاً لها في المشي، ولم تنتعل حذاء بمثل هذا الارتفاع من قبل خاصة أن الكعب كان ينزلق بين الفينة والأخرى إلى الجانب بسبب نعومة الأرض ما جعلها تقول في نفسها "إذا وقعت فضيحة.. مصيبة.. يا ربي خليني أوصل للطاولة بسلام... الله ياخدهم شو منظفين الأرض.. ". حاولت التوازن قدر المستطاع وتصنعت الراحة وواصلت السير وأنظار صديقاتها حول الطاولة مثبتة عليها وهي تتقدم نحوهن مبتسمة. انتهى السلام والمصافحة وقالت إحداهن "واو.. تبدين في منتهى الشياكة اليوم". شكرتها داليا وهي تتنفس الصعداء وجلست محاولة إبراز العقد ذي الماسة الكبيرة في عنقها بلمسة من أصابعها. توقعت تعليقاً عليه أو إعجاباً، إنما لم يحدث. بعد نحو ربع ساعة أرادت لفت نظر الصديقات إلى العقد فقالت:

"سوسن.. حلو هالعقد الذهبي برقبتك.. من وين اشترتيته؟"

أجابت سوسن بعد أن أوقفت حديثاً جانبياً مع سهير بجانبها "آه.. هدا من محلات هارودز في لندن.. اشتريته المرة الماضية وقت كنت بزيارة لأختي بلندن.. " قالت ذلك وتابعت سوسن حديثها مع صديقتها.

لم تكن داليا تحب أن ينشغل عنها أحد بل يجب أن تكون دائماً محط الأنظار ومحور الحديث ولم يعجبها أن تنفرد سوسن بالصديقة في حديث خاص فقالت بامتعاض "ليش منفردين.. شاركونا الحديث.. اجتمعنا لنحكي مع بعضنا ونسمع بعضنا.. شو يا ست سوسن؟".

توقفت سوسن عن الحديث ثانية ونظرت إليها بابتسامة ساخرة "حلو عقدك داليا.. عجبني كتير". وكأنها كانت تدرك أن كيد داليا وسطحيتها تداريهما كلمات الإطراء. وسرعان ما أجابت داليا دون تردد وقد كانت تنتظر التعليق "مائة ألف دولار.. هدية زوجي لعيد زواجنا الثامن والعشرين.. رائع مو هيك.. ".

سمعت تأوهات الإعجاب والتعليقات فطابت خاطراً. قالت سهير بنفاق مستتر والجميع يعلم عن مغامرات أدهم الجمري وعلاقاته مع النساء "ما شالله الحب بعدو شاعل عندكم"

فأجابت داليا وهي تخفي إحراجاً "أكيد... ما حدا محتل قلب أدهم الجمري غير داليا على طول.. ".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ساد صمت لدقيقة فقالت رجاء وكانت تجلس في الطرف الآخر من الطاولة "نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى، ما الحب إلا للحبيب الأول.. ".

كتمت داليا غيظها وأجابت بتشفٍ "طبعاً حبيبتي.. أكيد.. شو لكان.. خبرينا رجاء شو آخر مقتنيات الفازات والمزهريات وكم خناقة صارت بينك وبين زوجك حتى الآن؟".

فقالت رجاء "يا جماعة شو شفت مزهرية كريستال فخمة علإنترنت بمحل بفرنسا.. غالية بس بتسوى.. خمسة آلاف دولار.. وصيت عليها.. أكرم ما عاد يسأل.. كان بزمانه يعترض ويعصب كل ما اشتريت فازة.. بس حالياً ملّ وصار يشاركني بانتقاء المزهريات.. هاهاها".

ضحكت النسوة مع رجاء مجاملة، وقطعت ضحكهن داليا بالقول "يا جماعة شو رح تطلبوا... خلونا نطلب الأكل.. ".

كثيراً ما كانت الصديقات يترافقن في رحلة خارج البلاد إلى إحدى العواصم الأوروبية مثل لندن أو باريس أو روما لاقتناء آخر ما توصلت إليه خطوط الموضة أو زيارة الأماكن السياحية الشهيرة. واعتاد الزوج أن تغادر داليا أحياناً لأكثر من شهر فيما هو منشغل بالعمل.

وهذه المرة سافرت داليا إلى باريس بصحبة ابنتها وغادر فراس إلى أحد المصايف الجميلة على الساحل مع بعض الأصدقاء.

"هذا أفضل" قالت لامار في نفسها.. "وجودهم يزعجني".

صار لكل عالمه. راحت رزان تتشكل نسخة عن أمها، موضات وملابس وحفلات وصداقات. فقدت البراءة تدريجياً وانكسرت الوداعة في داخلها ولم تعد لامار ترى فيها سوى غرور وفوقية مريضة. وكان فراس نسخة عن أبيه. بعد سنة من عودته من الدراسة في الخارج لأربع سنوات راحت شخصيته تتبدل بشكل لافت إذ تسربلت حركاته وكلماته بعجرفة مقززة وهيمنت على تصرفاته قسوة لم تكن بادية من قبل. يخرج دائماً مع مجموعة من الشباب والفتيات من أغنياء البلد لارتياد الكافيتريات والمطاعم ودور السينما والتباهي أمام العامة بالثروة والسلطة تغمرهم نشوة فارغة يحقنها في شراييهم تزلف الآخرين وتملقهم.

وفي كل هذا بقيت لامار في وحدتها داخل اللانسجام مع أهل القصر مستسلمة للتأمل والعزلة والانتظار تمور في مخاض ولادة تمرد خفي.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفصل الثالث

في ذاك الغروب من أواخر شهر نيسان شعرتْ ببرودة النسائم تلفح وجهها والشمس أسدلت وشاحها الأحمر فوق الأفق وسرب من الطيور يدور في السماء قبل أن يأوي إلى أعشاشه مع حلول الليل.

وقفت لامار في الشرفة الواسعة ترقب غياب الشمس رويداً. تحزن للغياب، غياب النور يزيد من كآبتها ويسربلها بأحاسيس قاتمة. تعشق الضياء منذ كانت صغيرة.

بقي من شهر العقاب أسبوع. تكاد تختنق. تزرع الشرفة جيئة وذهاباً. تدخل إلى الغرفة وتخرج منها، وأصوات الممثلين في مسلسل تلفزيوني تضرب أذنيها، لا تعي ما يقولون تماماً، ربما هي قصة حب فاشلة. تضغط على أزرار جهاز التحكم. قناة أخرى.. قصة تتحدث عن الفساد الحكومي والنهب.. وقناة أخرى.. نشرة إخبارية.. نعوة.. قتلى جرحى.. فيضانات.. زلازل.. إسلاميون.. تفجير انتحاري.. إرهابيون.. تظاهرات.. عنف..

هناك دائماً أغنية في قلبها رغم كل الألم. فتحة نور بين الغيوم الداكنة. أُغلقت دونها الأبواب لكن روحها خارجها. تنتج ذاتها في سجنها وتخلق لنفسها وعياً مختلفاً. تتنقل بين فضاءات كونية وتتشكل انعتاقاً يصعب لجمه. تركيبة إنسانية مزدوجة، تفهم ذاتها وتؤمن بانطلاقها وحقها في حريتها، لكنها تتلكأ وتحجم وتتعثر. لا شيء يحجبها عن وجودها الذاتي، لم يكن عمها يدري عن عواصفها الداخلية شيئاً وبأنه لم يستطع قهر ريحها الجامحة كون هذي الريح لم تلفحه يوماً، ولم تقدر زوجة عمها بدأبها الساخر وتلميحاتها الرعناء تدمير قصور الكبرياء الشامخة أبداً في داخلها.

تهمس داليا في أذن ابنتها وتعض أصابعها غيظاً في كل مرة ارتطمت بجدار لامار حيث نُحتت كلماتها الصامتة "أنتم سرقتم ثروتي.. أنتم سطوتم على حقي ووجودي وحياتي.. أنتم سجنتم جسدي وكياني وسمعي وبصري وكل شيء إلا شيئاً واحداً.. بارق التحدي". كانت داليا تراه دوماً في عينيها الشهلاوين الناعستين وفي تمرد شعرها الجامح فوق جسدها النحيل وأنفة لفتاتها وحديثها الصاخب الصامت أبداً. لم تكن كذلك قبل سنة، إنها تتبدل وتتحول بسرعة. كانت أكثر وداعة وانصياعاً. بعد موت حصانها شُحنت بطاقة غريبة امتزجت فيها النقمة مع التحدي. لم يختلف موقف داليا يوماً. مثلها مثل زوجها أدهم وابنتها رزان، ثروة لامار من حقهم "عمك أدهم هو الذي أشرف على الثروة التي تركها أخوه ولولاه لما كبرتْ وتضخمت.. ثم إنك تربيتِ في كنفنا ولم يعد هناك ما هو من حقك". هكذا كان جدلهم.

فراس يبقى صامتاً عندما يذكر الأمر، فالثروة وابنة عمه من حقه وينتظر اليوم

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الذي سيعلن نيته الزواج منها لكي يحطّ يده على الثروة وصاحبتها.

خيَّم الليل. تعود للشرفة فترى سيارة عمها تقترب من الفيللا ثم تتوقف في الكراج ويترجل عمها بصحبة امرأة لا تستطيع تمييز وجهها. تداري نفسها خلف عمود رخامي على جانب الشرفة. يدخلان سريعاً عبر الباب الرئيسي ويختفيان، لا تريد أن يعرف أنها رأتهما كما في كل مرة سافرت فيها داليا إلى خارج البلد.

بعد حوالي ساعة تسمع باب الفيللا يُفتح ثم يغلق. تسرع إلى الشرفة فترى المرأة تغادر تحت جنح الظلام. يفتح لها السائق باب السيارة وينطلق.

تكسر شعاع الشمس في قلبها باجتياح الظلمة. تكرهها. تتذكر كلمات المسيح "أحبَّ الناسُ الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم شريرة، كل من يعمل السيئات يبغض النور، وأما من يفعل الحق فيقبل النور".

المال والنفوذ يأتيان بكل شيء. بإشارة من يده يأتيه تابعوه بأية صبية يراها أو يسمع عنها. بعضهن تدفعهن الحاجة المادية الملحة والبعض الآخر طمعاً بالشهرة والوصول إلى مكان ما في السلطة أو الإعلام وحتى الفن، وكثيرات يأتين خوفاً على أنفسهن أو أهلهن من العقاب إن تمنَّعن. وهل هناك من تجرؤ على كلمة "لا" أمام أدهم الجمري؟

يفنى في المتعة ويمارس لذة البقاء في سراديب الجنس. يحتل أجساداً ويدوس أجساداً. دراكولا يحيا بدم الآخرين، يجول بين قبور الأحياء وداخل حلوقهم، يخنق حشرجاتهم ويمتص رحيق نسائهم بجلافة ذكورته ثم يرمي بهن في مكب نفاياته، ومن تثير شهوته الأزلية ينحتها سندريلا الزمان فتتحرك بتعويذته.

وتعرف داليا أن زوجها يخونها. تشتم رائحة الخيانة في أنفاسه كلما رجعت من سفرها فتقوم بالرد على خيانته بخيانة مثلها.

العلاقة بينهما باهتة بل ميتة يلوكانها عبثاً. يقبعان عبثاً داخل جرة قذارة مصدفة بأحجار رخامية من خارجها.

تغادر لامار غرفتها بهدوء وتتوجه نحو جناح عمها تريد أن تتحدث إليه علَّه يسامحها ويأذن لها بالخروج أو زيارة صديقتها "راميا" قبل أن ينتهي شهر العقاب. عندما تقترب من باب غرفته تسمع شخيره يزلزل المكان، فتبتعد. ولماذا لا تخرج من دون إذنه عندما يكون في عمله؟ وهل هو يشعر بها أو بوجودها في البيت؟ بل هو ناسٍ تماماً أن هناك كائناً يتنفس وعلى قيد الحياة يقبع داخل القصر سجيناً منذ ثلاثة أسابيع. قررت الخروج في اليوم التالي رغم خشيتها من أن يخبره الحراس بذلك.

في الصباح رأت عمها يغادر. ارتدت ملابسها وهبطت السلم سريعاً متوجهة نحو الباب.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ركضت فوق التلال مسرعة كريح في غاب، فاردة يديها كجناحين تتنشق النسائم المحملة بعبق الحرية والرياحين. تتوقف هنيهة لتملي عينيها بمنظر الأشجار الباسقة على المنحدر الممتد، وتطيل التأمل بأزاهير شقائق النعمان تقفز بين الأعشاب من حين لآخر. تعود للركض على طول الطريق الزراعي. تلهث بشدة وتتباطأ خطواتها وحبَّاتُ عرق تلمع على جبهتها. تعود للركض ثانية باندفاع أكبر. هل هي تهرب من نفسها؟

تنظر إلى الوقت، مضى نصف ساعة ولم تشعر بها. في ذاك الزمن القصير نسيتْ كل شيء والتحمت مع الطبيعة والكون، فبدا لها عمراً لا يشبه الأزمان التي تعرفها في شيء. عيناها تعانقان حملان الغيم الأبيض الصغيرة تجوب السماء، فينحسر الوجود في مناجاة للقوة السرمدية العليا داخل أبعاد موغلة في نفسها لم تكتشفها من قبل. لأول مرة تتواتر حركة ساقيها السريعة مع دوران الكون الأزلي، وإذا بها في جريانها تفتح كتباً تتحدث لغة صوفية غامضة تقربها رويداً من تلك الذات العلية الكاملة لتؤدي طقوس الصلاة أمامها. كم كان خطأ أن تفكر بالموت، والسموات تفتح ذراعيها لها لترتقي إليها وهي على الأرض. تلاقٍ روحي يجمِّلها ويحملها في سفر سرمدي إلى المقام الأعلى حيث الحياة والبقاء.

تتوقف فجأة. كيف قادتها قدماها إلى هنا دون أن تشعر؟ تنحني وتمسح التراب بكفها. هنا سقط رمح.. هنا غادر عالمها.. هنا تناثرت جزيئاتها هشيماً في كل مكان.. هنا تقطعت حبال العشق المزمن.. هنا مات رمح. تساقطت دموعها واختلطت بالتراب. بكت بحرقة وبكاؤها صلاة جديدة. كم تفتقده، ذكراه تسد أبواب الوعي في عقلها.. تشردها..

مضت دقائق طويلة وهي جالسة في المكان، تتأمل بعينيها المغرورقتين حبيبات التراب والحشائش المتشبثة بأعماقها فتراها صفحات متصلة مزركشة بالأخضر والبني غارقة بالماء. "أنتِ أجمل هكذا من خلف دمعاتي.. أنت صورة وهمية ولست حقيقة كما كل الصور حولي.. لا شيء حولي سوى الصور.. ترافقني في كل مكان.. وحتى رمح غدا صورة جميلة على حائط غرفتي.. ".

يعود اليأس المميت ثانية لينتصب في وجه الزمن الجديد "آه يا رمح.. متى سأرحل إليك؟ متى سأصبح صورة مثلك؟". نهضت وواصلت الركض، تعثرت قليلاً بدموعها وكادت تقع، توازنت وعادت لتركض بسرعة أكبر. علَّها تُقذف خارج وجودها القسري، علها تطأ نقطة اللاعودة، علها تغير دوران الأرض، علها تحلق وتحط في أرض المعجزات.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفصل الرابع

لم يصل إلى عمها نبأ خروجها السري من البيت. قررتْ أن تعيد الكَرَّة كل يوم فالهواء الطلق عطَّر أنفاسها وأسدل ستاراً على كدرها وغمرها بالراحة. بارق التحدي يلمع بشدة في أفقها. إنها ترفض الاستسلام.

تخرج كل يوم من الباب الخلفي للحديقة فلا تلفت نظر الحراس. استمر الحال لأكثر من أسبوع. تمشي ببطء وما أن تصل إلى التلة حتى تبدأ بالركض فوق المنحدرات، تصعد وتهبط تجري مسرعة وكأنها تلحق مكاناً تخشى أن يختفي. تلهث وتتنفس بعمق وتجلس قليلاً فوق الأعشاب لتلتقط أنفاسها متأملة المشهد البانورامي الممتد أمامها دون أن تمَّل. عقلها رفيقها الوحيد، يقصَّان معاً حكايات كثيرة "ما أجمل أن تفعل ما تريد.. ".

الريح تضرب جبهتها فتنثر أفكارها في كل الجهات. في القصر في غرفتها في الجامعة في الدروس وفي السوق ومع راميا "سئمتُ وجه عمي وداليا ورزان وفراس، يا راميا، أرى نفس الوجوه كل يوم وأقوم بنفس الأشياء وأقول نفس الكلمات.. داليا تكرهني، يا راميا. تتمنى لو لم أكن موجودة في هذا القصر.. رزان لم أعد أعني لها شيئاً.. مجرد صورة باهتة من طفولة نسيتها.. عينا فراس لا تحملان شيئاً.. كان صديقي والأقرب إلى نفسي.. لعبنا سوية كثيراً.. تفتحنا للحياة معاً. لم يعد يلتفت لي منذ عاد من أوروبا.. يعيش في أعماقي كجذور سنديانة ضاربة في الأرض.. إنني وحيدة.. أحس أنني أصدأ وأتآكل.. بعضي يلتهم بعضي..

في الجامعة.. راميا تتحدث عن المواد المقررة.. تقول هذه المادة تكرهها.. كتاب المنطق.. تودُّ تمزيقه.. الدكتور دائم العبوس وبخيل بالعلامات.. تقول سأرسب.. لن أنجح هذه السنة.. بعض الشباب يغازلوننا في الطريق.. راميا تطرب لكلماتهم وتضحك.. تتلذذ بسندويشة الجبنة المسخنة وكأس عصير الكوكتيل اللتين أدمنتهما يومياً عند بائع العصير القريب من الجامعة.. راميا تكتفي بهذا من الدنيا.. لا شيء أكثر يستحق التفكير.. لا تريد أن تفلسف الحياة كما يفلسفونها في الكتب.. إنها أبسط وأتفه من ذلك.. هذه الكتب الفلسفية كتبها مجانين.. إنهم يعقِّدون كل شيء، لا أدري لماذا قررتُ أن ألتحق بهذا الفرع.. لماذا ندرس الفلسفة وعلم النفس.. لكي نتعب نفسياً ونرهق عقولنا بالنظريات الجامدة.. لن أستخدم هذه الشهادة في شيء عند التخرج.. تافهة.. إذا تحدثتُ هكذا سيظنون أني أصبت بلوثة في عقلي.. هكذا تقول لي.. لامار.. أنت تمتلكين كل شيء وتعيشين كالأميرات.. لماذا تريدين حياة أخرى.. لماذا تتمردين؟ إنك مثل أولئك المجانين الذين لا يعجبهم حال.. تفكرين بمسار مختلف ولا تعرفين ما هو.. وكأنك تريدين العبور إلى كون آخر تجهلينه.. كل المسارات متشابهة يا لامار.. إما نهاية حزينة أو سعيدة.. هي حياة واحدة وأرض واحدة ولا شيء جديداً تحت

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الشمس. لماذا تعقِّدين الأمور؟

.. ضاقت الحياة بي وروحي كأنها تتصعد إلى السماء، يا راميا،.. كل هؤلاء ظلال.. أشباح تتراءى لي من بعيد ولا أتبين ملامحها.. الثراء.. الرفاهية.. الراحة الكاذبة كلها لا تغريني..

إذن أهلاً بالصداع ووجع الدماغ وارتفاع الضغط، هكذا تقول راميا

الناس يلهثون حولي، يا راميا، يجرون كالوحوش نحو مغناطيس قاتل.. هل تدرين شيئاً عن ذاك الالتحام الروحي مع الطبيعة والكون الذي أختبره اليوم.. هو الجانب الآخر الذي أعبر إليه.. هذا الوعي الجديد يفتح نافذة ضوء أمامي.. يجب أن أعبر إلى الجانب الآخر.. ولو من خلال الموت.. حاولت العبور من خلال الموت وفشلت. أعبر اليوم وأنا حية.. قد يكون عبوراً نحو حقيقة البقاء بدون وصاية أو استلاب.. علي أن أصيغ قدمين آخرين.. ساقين مختلفتين .. خطوات أخرى.. ".

تقفز فوق الصخور بخفة "علي أن أتعلم قواعد اللعبة، يا راميا، لكي ألعب أفضل من الآخرين وأكون قادرة على المواجهة.. علي أن أدوس خوفاً زرع في قلبي مذ كنت طفلة، وأن أمزق حجاباً يفصلني قسراً عن ذاتي وأن أنسف واقعاً وأصيغ حقيقة أخرى.. علي أن أعيد الحرارة لكفي الباردين.. ".

في يوم أبطأتْ الخطى. توقفت. رأت طيفاً من بعيد على الطريق الزراعي يتقدم باتجاهها. تبيَّنت ملامحه كلما اقترب. تقدم كنان أكثر يكاد لا يصدق عينيه. توقفا وجهاً لوجه. هي نفسها الفتاة صاحبة الحصان. هو نفسه الفتى ذو العينين الخضراوين والوجه القمحي الملوّح بالشمس.

راح يتفرس في وجه من انتظرها أياماً طويلة إلى أن أحبطه اليأس، ثم قال مترددا ودقات قلبه تتسارع:

"أرجو أن تكوني أفضل حالاً".

"لا بأس.. شكراً لكَ" سكتت قليلاً، "صعب أن أنسى رمح.. ".

"أتفهم وضعكِ.. ".

"كبرنا معاً.. منذ كان مهراً صغيراً".

"أرجو ألا أكون قطعتُ عليكِ مشوارك".

"لا.. أبداً.. مجرَّد تريض... ".

سارا معاً ببطء صامتين دون أن يستأذن أحدهما الآخر في مرافقته، تجرفهما أفكار شتى وأعينهما تلاحق الطريق الزراعي، يحاولان البحث عن حديث. كانت تلتفت إليه بين الفينة والأخرى فيلتفت وينظر في وجهها ثم يدير رأسه بسرعة محرجاً كي لا تفضحه نظراته. فتبتسم سراً، عجباً من حيائه. قال فجأة:

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

"هل أنت ابنته؟ . أعني أدهم الجمري؟".

"أنا ابنة أخيه".

ساد صمت من جديد، وواصلا السير.

"ليتك لم تكوني كذلك" قال في عقله.

"ليتني لم أكن كذلك" قالت في عقلها.

تأخر الوقت تعتذر وتمضي.

مضى شهر العقاب وأصبح الخروج أسهل. التقت كناناً ثانية بعد عدة أيام على الطريق الزراعي. كان ينتظرها رغم أنه لم يكن هناك موعد بينهما، سألته:

"هل تأتي إلى هنا دائماً؟".

تلعثم قليلاً ثم أردف:

"آآ م.. أجل أحب المشي على الطريق الزراعي".

يصمتان مجدداً. دخلا منعطفاً ضيقاً أشبه بدغل فيه أشجار مثمرة. التقطتْ ثلاث حبات مشمش من شجرة تدلَّت أغصانها فوجدتها مخضرة لم تنضج بعد. تذوقت واحدة وقالت مغمضة العين "لذيذة بحموضتها". مررتْ واحدة له فابتسم قائلاً "أفضل الفاكهة الناضجة.. ومع ذلك سأجرِّب". أحس بالحموضة تلسع حلقه لكنه كابر وابتلعها مبتسماً وعابساً في آن.

انتهى الدغل وانفتح على الطريق الزراعي من جديد. ظلت لامار منشغلة بالنظر إلى الطبيعة حولها، وظل يرقبها ويفكر بتلك اللحظات التي تجمعهما. ستمضي سريعاً. تبدو له وردة دعاها الربيع لصحبته فلبَّت دعوته لفترة قصيرة وسرعان ما تغادر إلى عالمها ويغادر إلى عالمه. أشبه بغيمة عابرة لا تترك أثراً ولا تحزن لفراق أرض عطشى. "معاً على هذا الطريق لكننا غريبان.. معاً وكل يشعر بالوحدة.. ألبس قناعاً أمامها.. وأنا لا أحب الأقنعة. لمَ فرحتُ لرؤيتها من جديد.. لا بد أنني مجنون أو معتوه.. ".

ها هي قادمة من بعيد مرة أخرى تحمل الريح شعرها الجميل ملوحة له بيدها، تلمس قدماها الأرض بخفة وكأنها فراشة تتوق للتحليق. يسمعها تدندن لحناً بصوت خافت وهما سائران. يريد أن يتحدث معها عن كل شيء، وأن يزيل هذا القناع الذي يكرهه. لم يعتد أن يكون هكذا، ألاَّ يكون هو. لكنه معها يمشي صامتاً متعثراً بضعفه متردداً بخجله، فأحاسيسه الرقيقة المتوارية وعواطفه المتدفقة المكبوتة تتحكم بخطواته وكلماته. كم يتمنى أن يصدح لسانه بأشعاره أمامها، أن تصرخ مشاعره الصامتة وتتحول أحرفاً وكلمات تدق أبواب الصدى الكامن بين التلال وفي الحقول. يلتفت وينظر إليها. إنها لا تزال سارحة تتأمل الطبيعة حولها وتنحني لتقطف زهرة هنا وورقة ريحان هناك أو تقف وترفع رأسها

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

عالياً لتلاحق بعينيها شجرة حور في تطاولها نحو السماء. يحس أنها لا تنتمي إلى هذه الأرض. في جموح شعرها وعينيها هناك ما يوحي بأنها طفلة متمردة تعلَّقَ الحزن بخطواتها اللاهثة وأنفاسها الباردة. وكأنها تصارع الألم الممتد في الأفق. "لا أدري ما هو همُّك يا فتاة.. أخبريني ما هو همك.. " كان يردد في عقله. تأمُلُها وشرودها ولفتاتها تعكس عالماً يتداعى ويهوي سريعاً نحو لاقرار سحيق ليحلَّ محله زمان آخر تتربع فيه ملكةً في حفل تتويجها. تدعو الكائنات للحاق بها بعيداً عن أزمنة التسلط والحروب والكوارث والعنف.. لماذا يلتقيان؟ لماذا ينتظرها؟ لا يدري. في تلك المساحة الصغيرة من الأرض حيث يخطوان تتكشف أسرار عظيمة وتُنسج قصص غريبة، وكأن وجهها حوار بين زمنين، أحدهما قديم يتلاشى والآخر يتشكل ويُخلق، أشبه بلغز محير يفتك بعقله. لماذا يفكر هكذا؟ قرر أن يتحدى جبنه ولو لمرة ويفصح عن بعض ما في نفسه فإذا به يقول:

"أتدرين؟ كنت آتي إلى هنا كل يوم بعد الحادث علَّني أراك ثانية.. ثم توقفتُ بعد أن فقدتُ الأمل في خروجكِ من الفيللا.. ".

نظرت في عينيه بتمعن متسائلة ثم قالت:

"أكنتَ تترقب خروجي من الفيللا؟"

أجاب متردداً "أجل، كل يوم".

"لماذا؟".

واتته شجاعة من حيث لا يدري وراح يشرح لها كيف حمل صورتها الحزينة ولوعتها في قلبه لأيام طويلة، وكيف كتب لها قصيدة حزن أبكته وكيف شغلت تفكيره وهو يبحث في عقله عن حبكة لقصتها ووحدتها دون جدوى.

توقفا ونظرت في وجهه ملياً. تاهت في مروج عينيه الخضراء ولم تعد تدري أتقفز إلى تلك المروج وتنام في أعطافها أم تهرب بعيداً وتتوارى خلف الزمان والمكان خشية الضياع.

تابعا السير وبدأت سرد قصة حياتها في القصر دون أن تدخل في تفاصيل حبها لفراس عن قصد أو ربما من دون قصد.

كان يسمع بعمق وعندما توقفت لم ينبس ببنت شفة.. شُل تفكيره.. الى أين يسيران؟ الطريق خطرة جداً. أشباح تتلطى بين الشجر، وعيون تحملق في السكون، وحدسه يطلق سلسلة إنذارات من آلام قادمة لا تطاق.

قالت "مات والداي قبل الأوان.. وتركاني وحيدة.. " ظل صامتاً ولم يجب. بل واصلا السير ينصتان إلى أصوات السنونو تشق السكون أحياناً، وحفيف الشجر يغني بنعومة مع الريح الخفيفة. وإذا به يردد بصوت خفيض بعد دقائق طويلة دون أن ينظر إليها:

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

- كيف يعرف الناس أن بعض الناس يموتون قبل الأوان؟

قالت بعد تفكير قصير ودون أن تنظر إليه، بل جلست القرفصاء وواصلت التحديق ببركة من أزهار البنفسج تتوسط الحشائش:

- ربما.. عندما يغادرون سريعاً.. ويتركون أولادهم صغاراً.

- ماتا ولكن أنتِ نجوت من الحادث.

- نجوتُ.. ولم أعش أبداً.

رفعت رأسها ونظرت إليه فأردف:

- ماتا ليقولا لكِ عيشي حياتك كما يجب أن تكون.

نهضت قائلة:

- وكيف يجب أن تكون؟

- من دون أقنعة.

- ماذا تقصد؟

نظر إليها من جديد ولم يجب.

- لا شيء يملأ هذا الفراغ الهائل بعدهما.. تركاني طفلة تبحث عن ضحكة عابرة في وجه إنسان غريب.. بقيتُ طفلة معلقة بالصور والأوهام في خريف بارد وباهت.. أمي لا تستطيع أن تغفو مرتاحة في قبرها حتى اليوم.. لا تتفتح الزهور إن لم يأت الربيع.. ولا الأم تغفو إن لم تطمئن على طفلها.. أنا طفلة تبحث عن ربيع.. عن ابتسامة.. سجينة داخل قفص زجاجي مزركش طافٍ فوق بحر مائج.

غطت وجهها بكفيها وشعرت بحرقة في عينيها ورآها تطفو وتهرب من البحر وتفشل في فتح القفص وتصرخ وتستنجد يائسة من خلف الزجاج. هل ستصدقه لو تحدث؟

ساد صمت وافترقا، وفي طريقها إلى الفيللا فكرت بهذا الغريب، وتردد صدى كلماته من حولها "كيف يجب أن أعيش حياتي!".

في القصر جلست في غرفتها تفكر "معه حق.. الكل يرتدي أقنعة بما فيهم أنا نفسي.. قناعي يخفي حقيقتي ورفضي.. لن أتمكن من رفعه لأنني مسلوبة الإرادة.. تافهة.. ضعيفة.. يا لسخرية القدر.. وماذا عن أقنعة عمي ودالبا ورزان وفراس.. إنها تقلب معدتي أكاد أتقيأ.. لو أن فراساً ينزع قناعه ويرجع ودوداً ومحباً كما كان من قبل.. لكانت حياتي أجمل.. كم كنت أنتظر أن يحدثني.. كان رفيق روحي.. ما زلت أحمل له تلك المشاعر الجميلة القديمة في داخلي.. ها أنا أتظاهر باللامبالاة وأتجنب النظر في عينيه، وهو يتصنع الكبرياء والتجاهل.. هل أنا فعلاً لم أعدْ أعني له شيئاً؟ كيف يمكنه أن يغير عواطفه بكبسة زر؟ . ".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

تدور في غرفتها حائرة وتضم ذراعيها إلى صدرها بقوة، وكأنها تلملم مشاعر وذكريات تخشى أن تتسرب من بين يديها وتفقدها فجأة. تتشبث بها وترفض نسيانها. إنه شغف الحب "فراس يلبس قناعاً.. هذه العجرفة المقززة في وجهه ليست هو..".

بنت أحلامها على حبه ورأت ثمارها أينعت على أغصانه. بصحبته شيدت صروحاً من قيم ورؤى جميلة عن الحب والصداقة. في عينيه ترامت سهول الحرية التي حلمت بها، ومن ضحكته القديمة وبين خصلات شعره رأت وميض إنسان. وكيف لها أن تقنع نفسها بتحوله إلى رجل تستهويه المناصب والمكاسب والملذات، إلى روح جشعة دخلت في إسار أنانية طاغية عجز عن التحرر منها.

عدلت من جلستها عندما رأته قادماً من الخارج. التفتَ إليها ونظرت إليه، وقف وتأملها ملياً لبرهة ثم واصل السير إلى داخل الفيللا. لم يلقِ السلام كعادته كلما دخل الحديقة ورآها جالسة فوق الحشائش تحت شجرة الجوز متكئة على جذعها تقرأ في كتاب. رمت حصوة صغيرة في داخل بركة السباحة فتشكلت دوائر راحت تتسع. هبّت نسائم منعشة ورأت مريم قادمة تحمل لها طبق فاكهة. تبدأ مريم حديثها عن فوائد تناول الفاكهة والخضار وكيف أن أمها وجدَّتها حرصتا دوماً على أن تتضمن وجبة الغداء خضاراً متنوعة إلى جانب الكسكسي واللحم. حكايا مريم عن حبيبها القديم حامد وأمها وجدتها وبلادها لا تنتهي. تستمتع بالحديث عنها وبإصغاء لامار لها. سمعت أزيز نحلة تقترب لتنال حصتها من وجبة الفواكه فقفزت مذعورة عن الأرض، قالت مريم ضاحكة "لا تخافي، يا لامار، لن تلسعك.. تريد أن تشاركك فقط.". ضمت كتابها إلى صدرها من جديد وجلست تحدق واجمة في إحدى صفحاته دون أن تنبس بكلمة. "هل من خطب؟" قالت مريم،

هزت لامار رأسها نفياً دون أن ترفع عينيها عن الكتاب.

في يوم رآها كنان جالسة فوق التلة تنظر في الأفق دون أن تأتي بحركة، كتمثال نحت في المكان منذ زمن بعيد ونسيه البشر. سكنت النسائم فسكت الحفيف وساد الصمت، وحتى شعرها آثر السكون في انسيابه فوق كتفيها وظهرها. اقترب منها بعد أن كان ناوياً ألاَّ يعود "يا لهذا القلب التائه.. ها هي الحسناء مثل مدينتها تحتلانكَ.. حسناء وأي حسناء.. ومدينة وأي مدينة.. تلقي من روحها عليها فتجعل نهارها لا يشبه نهارات المدن الأخرى وليلها ونجومها لا يشبه الليالي والنجوم في كل بقاع الدنيا.. لم أعد غريباً كحَمَل في غابة تتقاسم لحمه الضباع.. أصبحتْ في فمي نكهة حلاوة لم أعرفها من قبل.. متى عشق القلب رأى المعشوق الوجودَ كله ومتى فارقه صارت الدنيا خواء".

مثلها هو عندما التقاها رأى فيها ما رأته في فراس رابية حب لا تخطئ جمالها عين وساقية ماء رقراق تغتسل فيها الروح. لم يكن يعلم، كما لم تكن لامار تعلم

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

عندما تركت روحها تسبح في سماء فراس، أنه يبني قصوراً من وهم.

فراس حبها وخيبة أملها وإحباطاتها. فراس كتاب قديم، صفحاته صدى ضحكات وصور أطفال ثلاثة يلاحقون القطط ويختبئون خلف الشجر ويسابقون الريح، هو أحاديث الصبا وقصص الأحلام والذكريات. وكنان كتاب جديد صفحاته بيضاء فارغة لا ذكرى فيه. تحاول نقش أحرف ورسم لوحات ملونة فوق فراغه فتعجز وتتلاشى الأحرف والمحاولات.

ولكن، تتكرر اللقاءات وفي كل لقاء تتأجج لهفة للقاء آخر إلى أن صارت الصحبة على الطريق الزراعي حبلاً يربطهما لا يستطيعان منه فكاكاً. تراه درباً للانعتاق ويراها ملاكاً هبط عليه من السماء. وكلما قررا ضمناً الابتعاد وجدا نفسيهما يسيران على الطريق نفسه مجدداً. يدرك أنه يقامر وتدرك أنها تخاطر، فليست الأمور بهذه البساطة. تعرف أنه يحبها، ويعرف أنها بداية انجراف داخل طوفان عاطفة قاتلة.

لم توقفه ولم تشجعه. تركته هائماً في سحر العلاقة، علَّ قلبها يفتح له مصراعيه بالكامل ليدخل إليه منتصراً في يوم . تجسدت المغامرة أمامها ملامح جنون يعصف في قلبيهما. يجب أن يبتعدا.. قد تؤذيه.. تدمره.. تنهيه، إنه مرفأ لسفينتها الجانحة لكنه قد يكون أخطر من الأمواج العاتية عليها.. قد يؤذيها.. يقتلها.. إنها أرض الفيء والخصب، لكنها من مقتنيات الدراكولا المخيف وما اقتناه لا يمكن سرقته. تحديه يعني الموت.

قررا أن يبتعدا بصمت وأن يوقفا الانزلاق الخطر. أن يفرملا المركبة التي تهوي مسرعة نحو اللاقرار. كان كنان يدرك أن اللهيب المشتعل في قلبه سيحول كل شيء إلى نار ويتركه رماداً.

"صعب أن نتعلم الطيران في الأقفاص.. " قال لها يوماً.

"افتح باب القفص إذن" أجابت.

"سيعيدونني إليه.. ".

"إذا حلقتَ عالياً.. لن يتمكنوا.. ".

"عندما كنت صغيراً.. صدَّقتُ أحلامي.. وحين كبرت أدركت أن أقفاصنا حديدية لا يمكن فتح أقفالها.. أطير وأرحل في عقلي.. علَّني أجد متنفساً لروحي.. وعلى أرض الواقع أعيش بين جدران إسمنتية تخنقني.. كلنا مساكين.. ".

"هل ألقيتَ سلاحك؟ لا تجعلني أذرف دموعاً وأنا أصغي إلى شجن نفسي وكل الهواجس من حولي.. لا أفتقد إلى المزيد منها.. ابتعد يا كنان.. فليس في سمائي نجوم لامعة.. إنك مثل الآخرين لا رغبة لك في الطيران.. رياح السوء تدفع بكم جميعاً نحو صحراء خاوية.. ميتة.. ظننتك درباً نحو الخصب.. علَّ اللون الباهت

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

في أعماقي يخضوضر.. فإذا بك تقتبس من لوعتي قصيدة.. أنت لا تجيد العزف على أوتار روحي.. ".

خطتْ إلى الوراء وهي تنظر إليه بعينين غاضبتين وقالت وهي تبتعد "..الصقيع.. السحنات المتجمدة.. لن أنظر إليها.. شبعتُ.. أتسمعني.. شبعت".

قال مطرقاً "سقطنا جميعاً في بئر الزمن المظلم.. نتساقط كالورق الأصفر الزائد ونداس بالنعال.. أنت ابنة الجاه والسلطان.. وما لك ولهذا البؤس من حولك؟ اغفري لي.. البكاء صعب جداً وعدم البكاء أصعب، يا لامار.. ".

"ما قيمة المال والناس حولك جياع؟ ما قيمة القصور والناس يسكنون الخرائب؟ كلكم تمسِّدون الوحوش وتقدمون القرابين لها.. اذهب يا كنان.. اذهب.. ".

ما الذي تريده منه؟ هي نفسها لا تدري. مجرد تشويش على الواقع لا يغير شيئاً.

يبتعدان وتتوقف اللقاءات، يشعر برغبة في البكاء طويلاً أمام السهاد الذي بات رفيقه في الليالي. يريد أن يتقبل فلسفتها لعيش انتهت صلاحيته، لكنه يفشل. إنه لمن الجنون أن تنسف حياة وتخلق أخرى. هكذا خلقها الله بأجنحة شفافة وبراقة تهفو لأن تطير. يرى صورتها في لجين الجدول وبين الغيوم. الأيام كانت أجمل عندما كان يلتقيها، والأشجار كانت أكثر اخضراراً والطيور أكثر مرحاً والتلال أكثر احتفاء به كلما مرَّ فوقها في طريقه للقاء لامار، وتلك البساتين الموغلة في العمق كانت تنتظره بنشوة غامضة. والزمن، آه من الزمن. الدقائق تتلاشى في غمرة اللقاء واللهفة، والساعات أقصر، ما أصعب الملل والوحدة، يتمطى الوقت داخلهما مسترخياً. بدون لامار الأماكن والألوان باهتة والبساتين موحشة وحتى الطعام لا طعم له. والليل طويل طويل لا نهاية له.

لكن الوحدة تعيد النظر في الأشياء ولا تصنعها، تضعها تحت الميكروسكوب وتضخم تفاصيلها فتجعلها مستحيلة. الوحدة تقييم للنفس والآخرين وحكمها قاس. عندما لا يكون وحيداً تصغر تفاصيل الأشياء ويغرق داخل حبكة التواصل والعلاقات.

الأفضل له أن يخرج من وحدته، تكاد تقتله. الحرارة خانقة والصيف حطَّ رحاله والمدارس أغلقت أبوابها.

حثَّ كنان الخطى نحو بيت صديقه هادي في منطقة مكتظة وسط العاصمة علَّه يشغل نفسه وينسى. الحر يشتد وقت الظهيرة والعرق يتصبب من جبهته وروائح الأجساد في الميكرو تخنقه. كان الراكب الجالس بجانبه يحمل علبة كرتونية كبيرة تغطي نصف وجهه وتحتل حضنه وجزءاً من المقعد ما اضطر كنان إلى الجلوس على حافته متعجلاً الوصول. فجأة صرخ الرجل "وقفْ.. وقف أبو

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الشباب وقف.. فوَّتَ الموقف.. ليش ما وقفت؟ صار لي ساعة بقول.. عندك.. وقف.. لازم يعني نصرخ بأعلى صوتنا لحتى تتكرم وتوقف.. شو أطرش.. الله يلعن هالركبة شو كلها بهدلة ما بكفينا كل هالشوب.. اترك هالميكرو وروح سوق حمار أحسن".

أوقف السائق المركبة غاضباً بعد أن فرمل بقوة جعلت الركاب يترنحون الى الأمام والخلف بشدة قبل أن تستقر أجسادهم على المقاعد الجلدية المليئة بالندب، وترجل من الباب الصغير بجانبه ثم سار حول الميكرو متوجهاً إلى الباب الذي يدخل منه الركاب، صعد إليه وانقض على الرجل وراح يسدد له اللكمات بقوة من فوق العلبة الكرتونية والرجل يصرخ ويستنجد، وبعض الركاب يحاولون فضَّ الاشتباك، والقسم الآخر وقعوا فوق بعضهم بعضاً في الفسحة الضيقة بين المقاعد، وآخرون غادروا الميكرو متعجلين هرباً من المعركة، وانسلَّ كنان بدوره من بين الركاب بعد أن تلقى عدداً من اللكمات خطأ، ولكن ليس من دون أن يخبط رأسه بسقف الميكرو أثناء ترجله وهو يلعن اللحظة التي استقله. أقسم أن يكمل مشواره مشياً على الأقدام على مسافة استغرقت نحو ساعة.

"تبدو شارداً وواجماً ما بك؟" بادره هادي.

"لا تشغل بالك.. لا شيء مهم، فقط أفكر في المشوار المقرف الذي قطعته للوصول إلى هنا ".

راح هادي يتأمله مبتسماً ثم قال وهو يخبط الحشية الرمادية القديمة بكفيه بعد أن فقدت شكلها ثم يضعها في حضنه ليتكئ عليها بمرفقيه "كنت أعتقد أنك اعتدت الشقاء في هذا البلد مثلي تماماً".

ظل كنان صامتاً يتأمل جدران الغرفة القديمة المليئة ببرك إسمنتية فقدت اللون الأبيض ثم تتنقل عيناه بين النوافذ ذات الإطارات الحديدية الصدئة والخزانة الخشبية الصغيرة في زاوية الغرفة.

"لا تبدو على ما يرام، يا صديقي، مشاكل في العمل؟" قال هادي.

"لا.. لا.. أبداً. المدارس أغلقت وأنا الآن أحاول أن أمضي وقتي بقراءة بعض الكتب وأتهيأ لإعطاء دروس خصوصية لطالبيْن الشهر القادم".

"ما الخطب إذن؟ أتخفِ عني سراً؟ ليس هذا من عادتك.. أعني أن تكون بمثل هذا الشرود".

"فتاة" قال كنان.

"لا تقل لي أنك وقعت في الحب!.. هاهاها".

"بل وقعت".

أصابت عدوى الشرود صديقه هادي وهو يستمع إليه.. لامار.. أدهم الجمري..

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أبو فراس.. فراس.. الخوف.. الرعب.. القتل.. الزنازين.. التعذيب، فقط تلك الكلمات المفزعة احتشدت في عقله ولسان حاله يقول "ابتعد يا كنان! ابتعد يا كنان، كيف سقطتَ هكذا؟ إنه الجنون، إنه الجنون.. لا بد أنك فقدت عقلك!.. لا أريدك أن تفتح أبواب جهنم.. لا أريدك أن تنتهي.. لا أريدك أن تنتهي..".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفصل الخامس

مرت أسابيع طويلة وغضبها الصامت يشعل فيها مزيداً من التحدي. لم تعد لامار قادرة على أن تمتهن التوقف والانتظار بل هي ترقص مع التحول وتحس بنشوة عارمة لقادم منتظر لا تدري كنهه، ولذاك الالتحام الروحي الكوني مع أزمنة مقبلة لم تختبرها من قبل. تهفو وكأنها تحرس براءة الأرض وتسقي زهورها وتحتضن نسائمها في كل خطوة فوق التلال، وتجري لتكون حكاية وصل بين غيمة سكوب وجذور عطشى. كيف يمكنها أن تتوقف أو تقتل كل هذا الدفق العجيب. إنه إعلان مهرجان الربيع يؤدي طقوسه الإنسان والطبيعة، فيه تهرع الورود والحبق وشقائق النعمان لتوزع فقراته بين التلال. انظري يا لامار، ألا تعلن الأزاهير جمالها لبزوغ الشمس؟ لا تخفيه ولا تداريه. ألا تتثنى السنابل على إيقاع النسيم في دعوة رقص وإفصاح شوق؟ ألا تحتضن الأشجار ظلالها في عمق الضياء؟ ألا تتمطى الطبيعة أمام الناظرين متباهية بألقها وسحرها دون أن تهتم لهمسات العابرين؟ الجمال يقتحم ولا يتوارى، والطبيعة تنثر عطر المحبة في عالم نسي المحبة.

لا يمكنها أن تترك كناناً يرحل ببساطة هكذا. كان لومُها له خطأ. إنه يحبها ولن تتخلى عنه وهي الباحثة عن الحب. لا يستحق منها هذا الجفاء والتأنيب. تقفز من سريرها مسرعة. لا تدري أهي تهرع للقاء كنان أم الطيور والأشجار. تنظر في المرآة وترى نفسها جميلة جداً وتخشى أن تفقد هذا الجمال. للحياة معانٍ جديدة مع كنان، وللطريق الزراعي ألق يضيء كل شيء. تدرك أنها تمشي في طريق وعر نحو تجربة غامضة، وأنها تسبح بقوة في بحر متلاطم.

عقصت شعرها إلى الخلف ووضعت نظارتها وهبطت الدرج، استوقفتها رزان:

"الى أين مع الصباح؟".

"أود أن أتريَّض في الهضاب".

"عجيب أمر هذا التريض المتكرر. حسبتُ أنك عزفتِ عنه! لم يكن هذا من عادتك.. لا تتأخري اليوم حفلة عيد ميلادي.. لا تنسي..".

"عيد ميلاد سعيد" قالت لامار بابتسامة سريعة.

تنطلق خارج البيت وتسابق ساقاها الريح لهفة للقائه. "لمَ كل هذي الحماسة؟ هل أخطأتُ إذ رميته بحجارتي؟ هل أخطأ إذ اعترف لي بضعفه؟ لمَ كل هذه الراحة تتسرب إلى أوصالي اليوم؟ هل بدأ يحتل مكاناً في قلبي؟ لابد أنه هناك ينتظرني.. "

الأفكار تتلاطم في عقلها. ماذا لو لم تجده؟ ستكون خيبة أمل كبيرة.

"لماذا لم آخذ رقم هاتفه؟ لماذا لم أعرف عنه أكثر؟ يا لحماقتي".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

تجول في الطريق الزراعي وفوق التلال. تتلفت حولها علّها ترى خياله قادماً من بعيد ولكن لا أثر له. ساعات تمر على جلوسها فوق الحشائش ولأول مرة تشعر بمرارة الانتظار تكوي صدرها وحلقها فتعود محبطة بخطوات بطيئة إلى القصر.

اعتكفت في غرفتها حزينة بقية النهار "لابد أنه راجع حساباته.. لابد أنه خائف.. ليس من الشجاعة في شيء أن تكون مقداماً على مسار زرع بالألغام. قد يكون محقاً، لا يريد أن يتورط أكثر. هو إنسان مسالم وفقير يعانق كتبه في النهار وينام على ترنيمات قصائده.. لا مكان له تحت ثريات القصور وبين أروقة الدجل والجشع. إنه الغريب الذي تجلى صدفة بين غيوم حياتي. جرحتُه بكلماتي.. وأنا التي ألفتُ كلماته وصحبته. أخشى عليه غيلان الأرض. يجب ألاَّ أشجعه أكثر.. ألاَّ أدفعه إلى المستحيل.. ألا أقذف به إلى الجحيم".

لعلَّ القدر خطَّ لهما مسارين متوازين يستحيل التقاؤهما. تتفتت أجزاء بصواعق تلك العلاقة الوليدة، جزء يحبه، وجزء يحجم. جزء يخشى عليه وجزء ينكمش متردداً وجزء يقتحم بإقدام، وتحاول حيرى لملمة كل هذه الأجزاء علها تصيغ قراراً صائباً وحاسماً.

في المساء تجري الاستعدادات لحفلة رزان، الكل منشغلون، الخدم يفرشون الطاولات في الحديقة ويضعون فوقها الزهور ورزان منهمكة بمكياجها وفستانها وزينتها، ودالیا تعطي الأوامر للجميع، ولامار ترقب المشهد من نافذة غرفتها في الطابق الثاني.

نقرت زوجة عمها بابها وأمرتها بالإسراع في تجهيز نفسها لاستقبال الضيوف معها.

بدأ الضيوف بالتوافد. المكان متخم بالضحكات والضجيج، والأنوار تنعكس خطوطاً تتكسر على صفحة الماء الرائقة في بركة السباحة ولامار شاردة. عجيب يندس كنان بين تلافيف عقلها، تراه في الوجوه وفي الزوايا وبين الأشجار، لا ترى أحداً سواه. هو مختلف لا يشبههم.

تصخب الموسيقى الغربية فتتمايل الأجساد وتلتصق، والأيدي تلتف حولها وتتداخل ثم تبتعد، والأقدام تضرب الأرض مع الإيقاع. النظرات تلتهب. الفساتين قصيرة لها أنامل تكتب قصص المدينة، والنهود شبه العارية أرجل تقفز برعونة، والأحذية تتكلم صراخاً، أردافهن دولارات تتدفق، وشعورهن عبث ضاحك. تشعر بالدوار.. تشعر بالدوار.. الدوار يلف رأسها.

ترى فراساً بسترته الجلدية السوداء الفخمة والسلسلة الذهبية في عنقه وشعره اللامع المصفف بعناية يراقص إحدى الفتيات وينظر باتجاهها بين الفينة والأخرى "يا لهذا القلب كم يحبه!. يا لقلبي يتفتت أجزاء لرؤيته!. يا لوسامته

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وأناقته ويا لقسوته وعجرفته المقززة!". تحيد بنظرها عنه وتنظر إلى الآخرين. مع انتهاء المقطوعة الموسيقية اقترب منها ومدَّ يده لمراقصتها. إنها المرة الأولى. لم يقترب منها منذ أن عاد من غربته. لماذا يطلب مراقصتها هذه المرة؟ ما الذي حدث؟

هل يمكن لها أن ترفض؟ أن تمارس حقها في الرفض؟ يراها كالأخريات مجرد أنثى.. ليست لامار طفولته وشبابه، لا، لم تعد. تلك مرت طيفاً عابراً في حياته. نسيها وانتهى الأمر. كرامتها تهيب بها أن تراقصته. يجب أن تهرب.. أن تصرخ.. أن تدير ظهرها وتمضي لتنتقم منه. أن تنتزع الاعتراف بكونها إنسانة وأن من حقها أن تقول "لا"

جبنتْ. لم تستطع. العيون تحدق بها. بعضها بنظرات تمساحية. عليها أن تستسلم لواقع كريه قذفت به اللحظة الراهنة، معركتها من أجل الخلاص بدأت ولكن ليس الآن.

لفَّ خصرها بيده، ونظر في وجهها فأشاحت به عنه، التصق رويداً بجسدها وغمرها برائحة عطره النفيس. لم تكن تعلم أن فراساً كان يلتهب في داخله ونيراناً تمور في قلبه، يغمره ذلك الشعور بامتلاكها فهي ليست كالأخريات، إنه يعشق غموضها وانعزالها. في تلك الرقصة أراد لأول مرة أن يخترق هواءها ويكسر شرنقتها علَّه يدخل عالمها ويحولُّها إلى ما يريد، يخامره ذلك الشعور اللذيذ أن تكون لامار بين يديه. الموسيقى تصدح فيقرب وجهه من وجهها ويحرقها بأنفاسه. تحبه وتكاد تختنق بهذا الحب.. جسده يطبق على أنفاسها. "كان يجب أن أكون سعيدة في هذه اللحظة، لكنني لست كذلك.. هذا الكائن ليس فراساً الذي أعرف.. لا ليس هو.. ".

أطفئ عقلها وغاب المساء والأضواء.. دمها صار فاسداً.. أحشاؤها أحشاء خنزير.. هي الآن كائن ناقص بلا كرامة.. بلا حرية.. بلا خيار.

يشدها إليه وينظر في عينيها مبتسماً فتهرب بناظريها بعيداً وتحاول أن تتملص، أن تبتعد. لكن يديه تعتقلان جسدها بقوة وتهرسانه. يتمزق لحمها تحت فستانها الحريري. كم كانت تراه وديعاً وجميلاً عندما كان طفلاً. كان يتقرب منها، يناديها ليلعبا معاً، يوزع قطع الحلوى بالتساوي بينها وبين رزان، كانت تشعر بميل كبير إليه. تنتظر الصباح وتفقد صبرها ومريم تمشط شعرها وتغير ملابسها من أجل الإسراع إلى الحديقة للعب معه. كانا يسيِّران زوارق ورقية فوق صفحة الماء في بركة السباحة، ويتسلقان شجرة التوت معاً وكثيراً ما تعجز لامار عن اللحاق به فتتوقف في المنتصف فيمدُّ يده ليساعدها في الوصول إليه وتجلس إلى جانبه يلتقطان حبات التوت ويأكلانها وهما يضحكان، وعندما تراهما مريم فوق الشجرة عالياً تضرب كفاً بكف جزعاً وتحثانهما على النزول بحذر خشية الوقوع. كان يركب دراجته ويدعوها للجلوس خلفه فتسرع إليه تغمرها الفرحة لتفضيله

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

لها عن أخته التي تركض إلى الداخل باكية. كانا يجولان خارج حديقة القصر ويتسابقان في الركض على أطراف الحقول، ومريم تقف بصبر تراقبهما من بعيد. عندما كانت في العاشرة من عمرها كانت تراه الأقرب إلى نفسها وتحب كل ما يقوم به، وتتعجب له يلتقط الخنفساء الملونة ويحتفظ بها في علبة صغيرة لعدة أيام، فتقول له "أطلقها يا فراس حرام" فيطلقها وهو يضحك ويقول "من أجلك سأحررها".

عندما أصبحت في الرابعة عشرة من عمرها، تجولت معه في البساتين المجاورة وحدثته عن أحلامها، وكثيراً ما كان يهديها كتاباً أو قرصاً مدمجاً يضم مقطوعات موسيقية أو أغاني تحبها ويحكي لها أحياناً قصصاً غريبة عن طموحاته ورغبته في اعتلاء منصب كبير في البلاد وأن تكون له سطوة أبيه وقوته. لم تكن تحب تلك الأحاديث، ومع ذلك لم تتخيل ببراءتها حينها أنه يمكن لفراس أن يتشكل داخل قالب أبيه.

واليوم يكاد يكون شخصاً آخر لا تعرفه. إنه غريب عنها تماماً. كيف تحول إلى وحش كاسر؟ كيف تجمعت خواص الهمجية هذه في داخله؟ لم تعد ترى في ملامحه سوى غطرسة سيطرت عليه منذ أن شبَّ عن الطوق.

"سيكون حفل زفافنا ضخماً. سيحضره كبار الشخصيات في البلد. أنتظرُ هذا الحدث الكبير بفارغ الصبر. وأنتِ؟" قال وهو يتفحص بعينيه البنيتين وجهها المحتقن.

لم تجب. ظلت عيناها معلقتين بالأشجار المزينة بالأضواء. هو لا يريد منها جواباً ولا ينتظر موافقة بل يريد إخضاعها، ولكنه مع ذلك تمنى في داخله أن يحظى منها بإيماءة أو أي رد فعل يحمل إشارة إيجابية.

خلَّصت نفسها من يديه بقوة مع انتهاء المقطوعة الراقصة وصعدت السلم سريعاً لتنزوي في غرفتها لا تريد أن ترى أحداً. ارتمت على سريرها وبكت طويلاً حتى بللت دموعها وسادتها. ثم غفت داخل أسئلة كثيرة، كيف لها أن تتمرد على هذا الزواج؟ كانت تدرك في أعماقها أن فراس لا يراها لامار القديمة وأن كل ما يطمح إليه هو التأمين على الثروة بكاملها والتي لا يزال جزء منها باسمها. تشعر برغبة في التقيؤ. تريد أن تغير كل شيء، حياتها وفراس ومن حولها. هل يمكن لإنسانة ضعيفة مثلها أن تغير صيرورة التاريخ؟ أن تنسف تلك الجدلية القائمة على غلبة القوة والسلطة؟ أن تسقط قانون الغاب؟

لن يكون هذا الزواج.

انبلج الصبح. فتح كنان عينيه على صورتها. لا تغيب، هي في كل مكان. أدار مفتاح الراديو الصغير بجانبه فتهادت أغنية فيروز:

"لا يدوم اغترابي... لا غناء لنا يدوم

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

فانهضي في غيابي... واتبعيني إلى الكروم.
هيئيها الدِنانا... كرمُنا بعد في رُباه.
يوم تبكي سمانا... نشبعُ القلبَ والشفاه
حبيبتي زنبقة صغيرة.. أما أنا فعوسجٌ حزين.
طويلاً انتظرتها طويلاً... جلستُ بين الليل والسنين
وعندما أدركني مسائي.. حبيبتي جاءت إلى الضياع
ما بيننا منازل الشتاء.. يا أسفاً للعمر كيف ضاع.
ما أحيلى رجوعي.. متعباً أتبع المساء
والهوى في ضلوعي.. جُنَّ من فرحة اللقاء.

تدفقت دمعات إلى عينيه. ما لهذا الحب يعتصر قلبه حتى الاختناق! اليوم أدرك أنه فقدَ السيطرة على كل شيء، ولم يعد يستطيع التحكم بسفينته الجانحة بل سيدعها تقوده حيثما تشاء. اليوم قرر أن يترك العنان للمقود يقوده، لن يستسلم لضعفه المضني. إنه يتحرق شوقاً وبعداً وألماً. يمضي الليالي سهاداً وأرقاً. قرر أن يتسلق الجبال الجليدية المنتصبة أمامه. عيناها تستحقان خوض المعارك ضد الوحوش. لن يكون تمثالاً تنحته ظروف جحيمية. هل يمكن له أن يدع عاطفته تهترئ بإعصار التهديد والخوف والجبن؟ لن يسمح أن يكون كالآخرين ممن بصقهم الأقوياء ورموا بهم في مكبِّ النفايات. سيكون إنساناً مهما دفع من أثمان. سيكون أو لا يكون.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفصل السادس

حث كنان الخطى إلى الطريق الزراعي. سينتظر حتى يملَّ الملل. لا بد أن لامار جاءت ولم تجده كيف رضي أن يحبطها! كيف استطاع أن يؤلمها! كان يردد "أنا جبان.. أنا غبي.. أنا بغل بقدمين.. أنا رجل ناقص الرجولة.. ".

ما أقسى حروبه مع ذاته! قابع وراء قضبان صراعه العقلي، وفي سجن نفسه بتهمة الضعف والتردد والخوف. كيف يخرج من براثن هذا الصراع؟ ما لهذه الشخصية المهترئة عاجزة حتى عن البوح؟ صامتة كجثة في كفن؟ مترددة مهتزة كورقة صفراء لفظها الشجر وتركها للريح. من هو؟ لم هو هكذا؟ كيف سيكون من دون هذا الحب؟ . وحيداً.. فارغاً.. ناقصاً.. هائماً.. من دونها هو لا شيء. سيضمحل أكثر.. سيتلاشى.

ومع ذلك لم تبحْ له يوماً بمشاعرها، إنما يشعر أنها ترتاح له وتحس بالطمأنينة. سيدعوها إلى محرابه وسيترك هذا الحب يصيغهما من جديد ويشكل وجودهما. قرر أن يجعله حباً عظيماً ويتعاظم به.

يركض متلهفاً ينظر حوله ويبحث عنها. يجب أن يلتقيها ويبثها لواعج قلبه. يجب أن يبوحا، وفي البوح راحة.

مرت الساعات على كنان ثقالاً وانتظاراً كاوياً جالساً تحت شجرة الصفصاف من دون جدوى. ومرَّ اليوم الأول والثاني والثالث والرابع والغياب يضرم مزيداً من النيران في قلبه.

وفي صباح يائس لم ينقطع فيه خيط الأمل في أنها ستأتي يوماً، رآها قادمة من بعيد. خفقات قلبه ضحكات ملائكة، وعيناه تراقصان المدى والمروج والطريق والخطوات.

وقفا طويلاً عند نقطة الملتقى متقابليْن، ينظر كل في وجه الآخر دون أي كلام وكأن الطير حطَّ على رأسيهما. إنها نقطة الملتقى ونقطة الخيار. بدت اللحظات طويلة. أخيراً قال "عيناي لم تعد ترى سواك يا لامار.. وحياتي لا معنى لها من دونك.. هناك شذى نضر ينتشر في كل شيء ويغمر وجودي.. من دونك لا وجود لي.. ".

عانقته صامتة ثم بكت، فأحس بها ترتجف واشتم رائحة العنبر في شعرها. ازدادت التصاقاً وكأنها تخشى أن تفقده ثانية وشعر بالقيد في يديها ويديه. أمسك برأسها بين يديه وقال "لا يمكن أن نوقف القدر يا لامار. مهما حدث أريد أن أبقى معكِ ولكِ إلى الأبد.. أريد أن أسمع منك شيئاً.. لا تتركيني ملقىً في برزخ لا أعرف وجهة لي.. معلقاً ما بين السماء والأرض.. ".

تركت رأسها على كتفه ودمعات في عينيها بللت ذقنه. لم تكن تدري أتبكي

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

حباً ضائعاً وجفاء أم قلباً عاف المشاعر وأوصد أبوابه دون كل شيء. كانت تلهث خلف اللامباح، وتقدم قدماً وتؤخر أخرى أمام المتاح. لا تستطيع أن تنتزع فراساً من قلبها وذاك هو مقتلها. قالت "لا أحد يعلم عن ألمي، يا كنان. أقضي أوقاتاً طويلة وحيدة.. محطمة.. لا أرى حولي سوى الزيف.. ". توقفت قليلاً ثم أردفت "أتدري كيف يموت الإنسان؟ عندما يموت الحب في قلبه.. ".

ارتسمت على وجه كنان ابتسامة كما لو كان يولد من جديد إلى حياة أخرى ليس فيها من خوف أو قلق داخل قلبه، لم يفهم ما عنته بل رأى في كلماتها دعوة للاستمرار فقال "سأتحدى العالم من أجلكِ حتى ولو كان في ذلك هلاكي.. ".

تعذبها كلماته ويعذبها بحبه لها، وكيف لها أن تجاريه وتتملص من شبكة أطبقت عليها منذ زمن بعيد.

قالت "لا تحلق عالياً في أحلامك يا كنان. ما زلنا على الأرض ولا ندري أي مصير ينتظرنا".

قال "دعينا ننسى الهواجس لزمن قصير، ونجلس على ضفاف ذلك النهر الرقراق من المشاعر الجميلة التي أحملها لك".

قالت "ما أجملكَ. لدي شعور بالحرية المطلقة معك، وكأني روح تنطلق خارج الجسد والزمان فلا تعود تخشى شيئاً، وكأني بك أولد من جديد، أو كنت ميتة وعدت إلى الحياة رويداً".

"أعلم أنكِ ربما لا تحملين لي نفس المشاعر التي أحملها لك. ولكني أنتظر ذلك اليوم الذي قد تتفتحين فيه على هذا الحب مثل وردة جميلة. كان غضبك في محله. يجب ألاَّ أكون كالآخرين ممن شخصتْ أبصارُهم وتجمدت أقدامهم من دون حراك. ماذا أقول لك يا لامار؟ اسمعي، أنت لي مرجانة أو لؤلؤة في قاع محيط هائل علي أن أصارع لأصل إليها.. لن أدع اليأس يفشلني.. سأقاوم.. وليعلم القاصي والداني أنني أحبك".

جلسا في فيء الأيكة دون حراك أو شعور بالوقت كل سارح في عالمه.

في نهاية اللقاء أوصلها إلى التلة القريبة من القصر ومضى يرفرف خافقه بين جنحيه طائراً خلفها وروحها منسلة تتبعه.

في تلك الليلة لم تستطع لامار النوم، كانت تفكر بذلك الحب الذي أطلَّ عليها في ظلمة ليل. وكذا كنان لم تغفُ عيناه فرحاً بقسم الحب الذي أداه أمامها.

الجميع خارج البيت، ولامار وحدها تتقلب في الفراش تبتسم للحظة وقلبها يرقص، ويعود طيف فراس لينتصب أمامها فيصيبها وجوم وتغيب ابتسامتها. كنان حولها وبجانبها وعلى فراشها وفي زوايا غرفتها وابتسامته تلفح وجهها وعيناه

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

تشعلان جسدها. وشبح فراس يتراءى من خلف الستارة فتلوح غباشة أمام عينيها. طفلان يركضان في الحقول، والأفق شمس والأشجار فيء وظلال وضحكات. تعانق الوسادة ثم تتركها وتنهض إلى الشرفة.

تتنشق عبير الليل. يا لهذا الهدوء! لم الكون ساكن هكذا؟ لمَ كل هذا الهدوء؟ لم لا تصخب الحياة بزغردات عشق يناديها، ويهبها حياة أخرى؟ تسمع صرخات حبه يرددها الصدى في التلال والوديان.

تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل وعين لامار مسهدة. اقتحمت رزان بسيارتها بوابة الحديقة وترجلت منها. كان فراس في الطرف الآخر ينتظرها. عاجلها بصفعة على وجهها جعلت شعرها الأشقر يتبعثر فوق وجهها وهو يقول "أين كنت أيتها العاهرة حتى هذه الساعة من الليل؟".

صرخت في وجهه بحدة فردد الصدى صرختها في سكون الليل "وما شأنك أنت؟ هل أنت أبي أو أمي لكي تحاسبني؟ ابتعد عن طريقي لا شأن لك بي أتفهم؟".

"أشتم رائحتك، وتشربين أيضاً؟ إلى متى ستعيشين بهذا الاستهتار؟ أنت طائشة.. منحطة.. وبدون أخلاق.. بحاجة إلى من يربيك من جديد.. ".

صرخت "انظروا من يتكلم.. فراس الذي قلما يعود إلى البيت قبل الفجر.. فراس الذي يبيع ويشتري بالفتيات على هواه.. فراس الذي يستخدم سلطة أبيه وماله لاستباحة كل شيء والحصول على كل شيء لترهيب الناس ودوسهم بالنعال.. فراس يتحدث عن الأخلاق ويلقننا دروساً.. إياك أن تتدخل بحياتي.. لا شأن لك بي ابتعد عن طريقي.. ابتعد.. لا أطيقك.. "

دفعته جانباً ودخلت وهو يهدد ويتوعد ولكن ليس من دون وخزات كلماتها التي لسعت جسمه، والحراس ينظرون بأطراف أعينهم إلى المعركة الدائرة التي شحنت أجواء لامار الهادئة والفرحة بالسخط والحنق.

لم تكن رزان على وئام مع أخيها إلا نادراً. تمثل لها وجها آخر من أبيها الذي لم يكن يظهر لها من المحبة إلا القليل. لم تر من فراس غير بسمة متجهمة ونبرة قاسية وسخرية متكررة وشعور بالعظمة يوحي بأنه مركز الكون. وحتى في مشيته كان يضرب الأرض بقوة وخيلاء. وفي عينيه نظرة استعلاء تحث الآخرين على تجنبه خشية استصغاره لهم. حطّت قباحة في وجهه رغم وسامته ولم يجد من الأصدقاء سوى من برع في النفاق والتملق إلى درجة تجعله يشعر هو نفسه بالغثيان، لكنه لم يتخل عنهم إرضاء لغروره. كان يبدل الفتيات كما يبدل قمصانه وسياراته ولم يعرف قط الحب الحقيقي عدا تلك المشاعر المبهمة التي حملها منذ الصغر في داخله تجاه لامار. كلما كبرت أصبحت بالنسبة له سراً غامضاً لا يستطيع كشفه، جوهرة مخبأة في صندوق مغلق بإحكام لا يمكنه

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

كسر أقفاله لكنه مع ذلك أحب أن تبقى تلك الجوهرة محفوظة إلى الأبد داخل الصندوق حتى وإن لم يحاول الوصول إليها. لا يريدها أن تخدش أو تجرح حتى ولو كان هو من سيفعل، إلى أن يأتي اليوم الذي سيفتح فيه بيديه ذلك الصندوق. كانت مشاعره الغامضة تجاه لامار تؤرقه، حمل تلك المشاعر منذ كان طفلاً وتجاهلها عمداً إذعاناً لغرور وكبرياء يمنعانه من البوح أو التقدم. لم يفكر يوماً أن يتقرب منها صديقاً أو أن يقتحم بابها متطفلاً نذلاً. كان يراها جميلة إلى حد يفوق الوصف لكنه لم يطرِ جمالها يوماً أو ينتقد تصرفاً قامت به. كان في حالة تجاهل مستمر عدا مرة أو اثنتين عندما دخل المطبخ في يوم واشتم رائحة الحلويات التي كانت لامار تصنعها بيديها فقال مبتسماً "ما أجمل هذه الرائحة.. إنها تثير لعابي.. هل يمكن أن أتذوقها؟" فأجابت لامار "تفضل"

تذوقها فراس وقال "رائعة أنت طباخة ممتازة".

توقف ونظر في عينيها طويلاً ثم أردف بصوت خافت "وجميلة".

وكانت المرة الثانية منذ نحو سنتين عندما كانت لامار تركب الدراجة الهوائية في الحديقة وفقدت توازنها فجأة لمرور قطة أمامها فوقعت على الأرض والتوى كاحلها وكان هو قادماً بسيارته فأسرع لنجدتها وساعدها على النهوض قائلاً ونظرة قلق ومودة في عينيه "هل أنت بخير؟". ثم أمسك بيدها وسارا إلى داخل الفيلا ينظر إليها بصمت بين الفينة والأخرى. حينها توقف عند باب غرفتها قليلاً وفي داخله رغبة ليضمها إلى صدره طويلاً وينسى العالم والجبروت والكبرياء والسطوة التي يغرق فيها، ويعود إلى ذاكرة الطفولة والمشاعر البريئة الآخذة في التلاشي، وكأن لامار القشة التي أراد أن يتعلق بها قبل غرقه، ومع ذلك لم يفعل، غرق واستسلم وابتعد. في تلك اللحظات وعند باب غرفتها شعرت لامار بغبطة خفية وحيرة وحملت عيناها تساؤلاً تجاهلَه، ومضى يهبط الدرج مسرعاً دون أن يلتفت إلى الوراء.

عدا تلك المرات كان فراس كسابق عهده. وكلما مرت السنون ازداد التباعد بينه وبين الفتاتين وصار في نظرهما لسان أبيه وأفكاره وكلماته، تقمصه وأصبح نسخة معدلة منه أكثر توحشاً.

تلك المشاعر الباردة التي تجول في القصر جمدت ساكنيه في قوالب وحولتهم إلى شخوص يؤدون أدواراً لا يستسيغونها كثيراً، لكنهم اعتادوا عليها فلكل طريقته التي لن يتخلى عنها داخل قالبه.

لطالما تمنت رزان أن تكون أكثر قرباً من أمها وأن تشعر بحنانها ولمستها، لطالما تمنت أن تعانق والدها وتقبله وتجلس معه أوقاتاً يتبادلان الحديث ويضحكان معاً ويتشاركان معاً الرياضة والسفر كما يفعل بقية الآباء والأمهات، لكنها تخلت عن هذا التمني منذ سنوات طويلة بعدما يئست من تحقيقه واستبدلته بقناع من الاستقلالية والثقة الزائفة غطى براءة وجهها والنظرة

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الطفولية في عينيها اللتين امتزج فيهما اللون الأخضر بالبني، قناع أضاف سنوات إلى عمرها.

وراحت الصداقة بين الفتاتين تتلاشى تدريجياً، أدركت رزان كلما كبرت أن لامار تبتعد وأنها لا يمكن أن تكون رفيقة الزمن القادم. نفحات من ذكريات الطفولة تتداعى إلى عقليهما أحياناً فتمرر تيار عاطفة مكبوتة إلى قلبيهما تجاه بعضهما. تحبان تلك الذكريات والضحكات والدمعات وتتمنى رزان أن تعود، إنما تدرك في ذات الوقت استحالة أن تدخل لامار إلى عالمها. في أعماقها تراها أكثر ذكاء ونضجاً وصبراً ولكن لن تعيد إبرام صداقة جديدة معها. الطفولة رحلت ورحل معها كل شيء.

كان الأب غارقاً في عمله صباح مساء ولم تكن العائلة تعرف تفاصيل كثيرة عن هذا العمل رغم ما يتناهى إليهم بين الفينة والأخرى عن أخبار المشاريع والصفقات والمصانع وكانوا على دراية تامة بمدى السطوة والخوف اللذين ينشرهما اسم أدهم الجمري في المجتمع، وكانت تلك السطوة تدغدغ الأنا المتعاظمة داخل فراس ورزان ودواليا وتثير رغبة في التقيؤ في معدة لامار ورفضاً وجموحاً وتمرداً.

انشغلت الأم في عالمها وزياراتها وحفلاتها إنما ورغم العلاقة المتداعية مع زوجها فقد حرصت على أن يظهرا معاً في الأجواء المخملية والحفلات الرسمية يتصنعان الابتسام والتفاهم وينخرطان في الأحاديث مع المدعوين فاقدَيْن الحماس أو التركيز فيها. كان كل شيء مجرد مجاملات تافهة وعابرة.

في بداياتها كانت داليا امرأة بسيطة ثقافتها محدودة لم تحظ سوى على قليل من التعليم، دأبت على خدمة زوجها وتأمين طلباته والسهر على راحته مع الأولاد، إلى أن كانت النقلة الهائلة والتحول المفاجئ اللذان قلبا حياة الأسرة رأساً على عقب، وفي خضم هذا التبدل الصادم تحولت داليا إلى كائن آخر فكانت خليطاً متنافراً من التباهي والشعور بالعظمة وحب الاستحواذ والجهل وسخافة التقييم واحتقار الآخرين وضحالة التفكير والتقلبات المزاجية المصطنعة التي تشكلت مثالاً صارخاً للالتواء النفسي والأخلاقي.

لم يكن من تواصل بين لامار ودواليا، فلامار تتجنبها ودواليا تتجاهل وجودها. تمران ببعضهما كشبحين. فقط على طاولة الطعام وفي المناسبات العامة التي تجري في الفيللا تلتقيان وتتبادلان بعض الكلمات الضرورية ثم تواصلان التجاهل. أحست لامار بالكره في عيني داليا وتمنت دائماً أن تحمل الإحساس نفسه تجاهها، أن تتعلم كيف تكره لكنها لم تكن قادرة، لم يكن ذلك من خواص تركيبتها الجينية. كانت تحمل جينات مختلفة محملة بموانع الكراهية. وكان ذلك سبب شقائها في هذا المكان. وفي هذا كله بدا الجميع في مضمار سباق للفوز بميدالية انعدام الأحاسيس تجاه بعضهم بعضاً.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ولم يخل الأمر أحياناً من حديث جانبي بين داليا وابنتها تتحدث فيه الأم عن ضرورة أن تحصل رزان على الشهادة الثانوية والتوقف عن اللهو وتضييع الوقت، وتتحدث رزان عن رغباتها الشرائية التي لا تقف عند حد وعن توافه الأمور التي تحدث بينها وبين صديقاتها، وتحس بالخيلاء أثناء الحديث لمحاولة صديق أو شقيق صديقة التقرب منها أو التغزل بها.

عاشت لامار في حيرة من أمرها لا تعرف كيف تصنف نفسها أو عائلة عمها على قائمة البشر وكلما تمعنت في الكتب الفلسفية التي تدرسها في الجامعة كلما ازدادت حيرتها وضياعها وراحت موازين الأمور والمواقف تنقلب في عقلها بسرعة فاقت مسيرة الزمان والمكان.

"هؤلاء العظماء المزعومون من يحكمون ومن يتسلطون هم نفايات بشرية ونتاج للمرض وغرائز الانتقام".

كانت كلمات نيتشه في زرادشت تتردد في ذهنها على الدوام،

"هؤلاء المتعاظمون كائنات فظيعة ومضرة وغير قابلة في جوهرها للعلاج غايتها الإنتقام من الحياة. هنا المدينة العظمى، وهل لك أن تخرج منها بشيء؟ إن عليك أن تفقد فيها الكثير. هنا تصهر الأفكار السيئة حتى تصبح مزيجاً مائعاً، ولا يسمح إلا للعواطف الجافة أن تعلن نفسها. تلاعب ألفاظ وسخائف تغص بها جداول الصحف فإذا هي مصارف أقذار. هنا مقام جميع الرذائل والشهوات. اي زرادشت أحلفك بكل ما فيك من قوة ونور أن تتف على هذه المدينة، مدينة بائعي السلع ثم تكر إلى الوراء. ابصق على هذه المدينة الكبرى لأنها مزبلة تتراكم فيها الأقذار. ابصق على مدينة النفوس الضعيفة والصدور الضيقة، مدينة العيون الحاسدة والوقحين والفجار والمعربدين والطامعين البائسين. المدينة التي يتكدس فيها من يأكلهم سوس الفساد من أهل الشهوات المتآمرين. ابصق على هذه المدينة وعد أدراجك.. ".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفصل السابع

لطالما رأى كنان حزناً في عيني صديقه هادي ولطالما قرأ غضباً في داخله. كان هادي بعينيه السوداوين وشعره الكستنائي المسبل حتى شحمة أذنيه وبمنكبيه العريضين وحديثه المنضد بحكايا القهر وكلماته المخضبة بنيران الرفض نموذجاً حياً للشباب الثائر والمندفع لتغيير الواقع. كان على عكس اسمه تماماً وعلى النقيض من كنان، هذا الذي تميز بنحوله ورقة عوده وحيائه الواضح المستتر. وبينما كان هادي متحدثاً بارعاً يجاهر بالحق ويدافع عنه دون خوف وإلى حد التهور، كان كنان صامتاً أكثر منه متحدثاً وحالماً أكثر منه واقعياً، يفضل الانزواء والوحدة داخل عالمه الشعري والروحي في انسلاخ بيّنٍ عن الواقع.

عمل هادي مصمماً لرسومات الأقمشة في مصنع للنسيج والألبسة الجاهزة تابع وملاصق للشركة التجارية الكبرى التي يمتلكها أدهم الجمري ويديرها أحد زبانيته، وكان يتقاضى راتباً ضئيلاً لا يقيم أوده وأود أسرته المؤلفة من خمسة أشخاص، أمه وإخوته الثلاثة الذين تكفل بهم بعد وفاة والده. دأب على التفكير في طريقة لتغيير هذا الواقع ورفع الظلم والغبن الذي يتعرض له العمال ولم يكن يعرف السبيل إلى ذلك.

وكثيراً ما كان هادي يذكر صديقاً له يدعى جهاد ويكرر الحديث عن مقتله المثير للجدل متيقناً بأنه كان حادثاً متعمداً. كان جهاد يعمل محاسباً في مصنع النسيج نفسه، وقضى بعد أن سقطت فوقه عوارض خشبية ضخمة كانوا يستخدمونها للتوسع في المبنى فقتل على الفور. لم تفارق مخيلة هادي صورة صديقه مسجى ميتاً على أرض المصنع، وكان يردد "قتلوه ليتخلصوا منه.. قتلوه من أجل إسكاته بعد اكتشافه صفقة مشبوهة أراد الجمري تمريرها وتلاعباً للحصول على مناقصة لصالح الشركة.. قتلوه لأنه كشف حقيقتهم.. إنهم مجرمون"

توجه هادي مع كنان في يوم إلى محل لبيع الحمص والفول القريب من منزله لشراء شطيرتي فلافل. انتظرا طويلاً في الطابور الطويل أمام المحل، ومعدة كنان تقرقع جوعاً فهو لم يتناول أي زادٍ والنهار شارف على الانتهاء، وما أن صارت الشطيرة بين يديه حتى بدأ بالتهامها سريعاً أثناء سيرهما نحو الحديقة العامة. قال هادي وهما جالسان على مقعد فيها "كنت دائماً أغبطك لعملك في التدريس وبعدك عن أدهم الجمري وإذا بك تمشي إليه بقدميك بعلاقتك مع ابنة أخيه".

كنان لم يجب بل واصل التهام ما تبقى من شطيرته بنهم. ساد صمت لفترة طويلة فقطعه هادي بالقول "الأمور ليست على ما يرام، الفقر يستشري وفئة تسيطر على كل شيء والحقوق ضائعة. الى متى سيبقى الحال هكذا؟".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

صمت قليلاً ثم واصل قائلاً "قررت مع بعض العاملين في المصنع تشكيل مجموعة لمحاربة الفساد والفاسدين سنطلق عليها، جمعية تطهير العمل وإعادة الحقوق".

توقف كنان عن الأكل للحظة وقد علقت اللقمة في حلقه ونظر إليه متسائلاً بعينين متسعتين دون أن يتكلم ثم عاد وواصل مضغ طعامه، فأردف هادي "أليس لديك من تعليق؟".

هزَّ كنان رأسه نفياً. كان يستمع إلى صديقه يتذمر بين فترة وأخرى فيبقى صامتاً. ألمُ قلبه كافٍ وحِملُ عشقه كبير ولا يقدر أن يقحم في ذهنه أحمالاً أخرى، معركته القادمة من أجل هذا الحب باتت قريبة وهو يفكر في طريقة للانتصار فيها، إنما وكلما شق طريقاً في عقله وجده مغلقاً ونهايته تفضي إلى هاوية.. إلى دمار.. إلى جهنم. اكتفى بالقول أخيراً "بالله عليك ماذا ستحققون. تحذرني من هذا الحب وأنت تسير في طريق أشد خطورة. أدهم الجمري سيقف لكم بالمرصاد وسيتهمكم بإثارة الفوضى والشغب في مصنعه، ويمكن أن يدككم في السجون بتهمة الإرهاب بدعم من صلاته مع الأجهزة الأمنية.. أو يصفيكم واحداً بعد الآخر".

نظر هادي في الفراغ طويلاً ثم راح يقضم قطعة بعد أخرى من شطيرته بقوة دون أن ينطق بكلمة.

افترق الصديقان كل في طريقه، ومشى كنان والغصة في حلقه تخنقه. يهيم في شوارع العاصمة منهكاً بتلاطم أفكاره، عينه تنظر ولا ترى الوجوه المارة، وأصوات الباعة في السوق الشعبي القريب من منزل هادي تخرم أذنيه ولا يسمعها. يواصل السير لأكثر من ساعتين. يجتاز الحارات الضيقة والشوارع العريضة، ويغرق في ازدحام السيارات والباصات والدخان من العوادم يتغلغل إلى أنفه ويخنقه. كل شيء يخنقه، كل شيء يتكرر ويعيد نفسه بسأم. يتذكر نقاء الأجواء في بلدته الصغيرة وهدوء الطرقات بين أشجار الزيتون والحور والجدول الرقراق الذي اعتاد السير بحذائه وهو في طريقه الى المدرسة. كم كانت الحياة هناك بسيطة وجميلة. يتذكر فاطمة ابنة الجيران ووعده لها أن يعود في يوم ليتزوجا. يتذكر لهفتها لرؤيته وانتظارها خلف ستائر النافذة لحظة خروجه. كانا يمشيان طويلاً بجانب الجدول يعتصر كفها في يده. في بداية تفتحه على الحياة كان يرى العالم من خلال عينيها الواسعتين وابتسامتها الخجولة وخطواتها المترددة. كان يظن حينها أنه يمتلك الوجود بأسره وأنه لا يريد أكثر من هذا. إنما وما أن غادر البلدة حتى غادرته تلك المشاعر تدريجياً. يدرك أنه سبَّب إحباطاً ولوعة لفاطمة. منذ أن ابتعد عنها لم يعد يحمل في قلبه سوى الفراغ. يكره أن تصبح أول فتاة خفق لها قلبه محض صدفة عابرة، لكن الأمر خرج من يده. كيف زهد بتلك الحياة البسيطة؟ كيف غابت صور الطفولة والشباب في تلك البقاع

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الوادعة وحلَّ محلها جنون العاصمة ومعركة الوجود فيها.

كم هي مختلفة الحياة هنا في المدينة الكبيرة! لم يكن يتصور أن يلتصق بها رغم شقائه فيها، بل وأن يعتاد هذا الشقاء ويدمنه. لم يكن يتصور أن تدوس العاصمة ماضيه بنعليها الأنيقين وتكون حاضره ومستقبله. مدينة المدن، القاسية الرحيمة.. المتسعة الضيقة، مدينة الجمال والقبح، والقناعة والجشع. لم يكن يتصور أن يدق قلبه بكل هذا العنف عندما رأى لامار وأن يغرق في كل هذا العشق. لامار مختلفة كما اختلاف العاصمة في سحرها وإثارتها وصخبها وهيجانها. لماذا لا يستطيع تغيير الأشياء هنا؟ لماذا تتشابك الأمور إلى درجة يعجز عن تفكيكها. عليه أن يخوض معركة كبيرة ضد قوى الشر ولا يملك سلاحاً، هو ليس سوى ظاهرة عرضية على هامش الحياة التي تعج بنمطية كسيحة لا تتبدل. لا وجود للضعفاء، الأقوياء فقط يملكون الأرض والبقاء للأقوى.. للأغنى.. للمتنفذين.. للمنتفعين..

غداً سيلتقي لامار. إنها الشعاع الذي يضيء حياته مع تكاثف الغيوم في سمائه. يجب أن ينسى هذا الصراع على الأقل في الوقت الراهن ويتهيأ للقائها بقلب مفتوح ودون أن يثير قلقها بما يعتمل في ذهنه من مخاوف. هي مثله بحاجة إلى من يرفدها بالثقة والطمأنينة. يدرك أنها وجدت فيه ضالتها التي بحثت عنها طويلاً في وحدتها بين جدران القصر العالية، ويدرك أن حبه لها فتح أمامها الأبواب المغلقة لتنطلق إلى حريتها، ولكن كيف السبيل إلى حماية هذا الحب؟

الطريق الزراعي والأيكة الظليلة يشهدان على عشقه الكبير لها الذي راح يترعرع ويكبر دونما توقف. عانقها طويلاً. ودفن رأسه في عنقها. اشتمت رائحة العطر منه وهمست "أحب عطرك". ابتسم وهو ينظر في وجهها متأملاً. لم يشأ أن يخبرها أن زجاجة العطر الفخمة التي اشتراها من محل في شارع الأغنياء والقميص الأبيض المقلم باللون السماوي قضما ربع راتبه. أمسك بيدها وسارا على الطريق الممتد. حدثها عن الكتب التي يقرؤها والقصائد التي نظمها خصيصاً لها فقاطعته بالقول:

"هل تفكر في المستقبل؟".

"أفكر في المستقبل على أننا معاً".

قالت وعيناها اللوزيتان تتسعان "معاً؟ وكيف؟ الطريق وعرة، يا كنان، ومع ذلك الفرق بين أن أكون معك أو بدونك كالفرق بين الحياة والموت".

قال "إنه الحب.. هو الذي يمنح الحياة.. لكنه قد يكون أحياناً تجربة مريرة.. ".

قالت "الحب تجربة الإنسان منذ الأزل ومع ذلك قد يعتبرها الآخرون خطأ".

"الحب ليس خطأ.. الحب هو أصل الوجود والخطأ هو في تفسير الإنسان لهذا

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الحب وموقفه منه وما يقترفه بحقه".

سكت قليلاً ثم أردف:

"ورغم أن قابيل قتل هابيل بسبب الحب يبقى الحب بريئاً من عملية القتل.. أليس كذلك؟".

"أكيد الحب ليس خطأ ولكن أن تواجه أو تتمرد أو تتحدى من أجل هذا الحب ومن أجل قناعاتك قد ينظر إليه على أنه خطأ أو ربما خطيئة".

صمتت قليلاً وانحرفت بالحديث لتقول "آينشتاين قال إن أي شخص لم يرتكب أي خطأ لم يجرب أي شيء".

"صحيح كيف تخطئ وأنت لا تفعل شيئاً أو تجرب شيئاً لأنك تخشى أن تخطئ؟".

تحدثت لامار عن استحالة وجود بشر من دون أخطاء، ثم عن المثالية في رأي نيتشه الذي اعتبرها خطأ وليست من صفات البشر بل من صفات الملائكة.

راح كنان يضحك قائلاً "يبدو أن الفلاسفة يشاركوننا مشوار اليوم.. ".

ضحكت وقالت "هل يزعجونك؟".

قال "لا أبداً على العكس أستمتع بما تقولين، ولكن أخشى عندما نتزوج أن أصبح على قول فلسفي وأمسي على آخر".

أجابت بصوت خفيض ودون أن تنظر إليه:

"نتزوج؟".

ضحك قائلاً "أجل".

لم تجب. وصلا إلى الأيكة، جلسا وراح يتأمل عينيها الشهلاوين حائراً في عقله. نظرت في وجهه طويلاً بعمق وقالت "عندما تنظر إليَّ أراكَ تنظر بعيداً".

قال محاولاً ستر مخاوفه "أتيه لأنك المكان والزمان، فأنت واسعة وسع الكون، وكثيراً ما أسأل نفسي بسذاجة هل يمكن أن تحبني لامار، ولماذا؟".

ساد صمت منهك فقال "أراكِ غيمة في السماء يصعب لمسها أو فراشة تحوم حولي، ثم تطير في المدى ولا أستطيع اللحاق بها.. ".

قالت "فراشة تحترق بنار تضرمها بيديها.. ".

حلَّ صمت من جديد فإذا بها تقول "دعنا نجول في الأماكن أريد أن اتجول معك".

قررا الذهاب إلى أحد الأسواق التقليدية الشهيرة. لم تزر لامار تلك الأماكن منذ كانت صغيرة. رفضت أن يستقلا سيارة أجرة قالت "أريد أن أعيش عالمك".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

استقلا الميكرو ولم ينسَ أن ينبهها من ارتطام رأسها بسقف الحافلة قال لها ضاحكاً "انتبهي، أنا اعتدت خبطات الميكرو في الصعود والنزول".

كانت تضحك من أعماق قلبها وهي جالسة إلى جانبه على المقعد تستمع إلى تعليقاته الساخرة بين الفينة والأخرى وجسداهما يهتزان مع اهتزاز الحافلة الصغيرة وترنحها.

كان مدخل السوق يعج بالناس والحركة معلناً بقاءه الأبدي نبعاً يضخ السياح والزائرين من كافة بقاع الدنيا. لم يتغير، لا يزال كما تركته لامار وهي صغيرة، يحمل عبق التاريخ محتضناً تحت سقفه الضخم محلات تزخر ببضائعها التقليدية مثل المصنوعات النحاسية اللامعة والمصدفات والأقمشة المطرزة بكل أنواعها والديباج والسجاد والذهب والتحف والتراثيات. أشبه بمدينة تجارية في قلب المدينة القديمة. كانت لامار تستمتع برؤية هذا الفيض يغمرها بذكريات الطفولة وصوت أمها "هل تريدين كعكة بالسمسم، يا لامار". كانت تعشق الكعكة المقمرة وبداخلها الزعتر. رائحة التوابل وضجيج الباعة والمتسوقين وحتى خطواتها فوق حجر البازلت الأسود الذي رصف به السوق، كلها رجع أحاسيس.

دلفا إلى محل لتناول البوظة بالقشدة، ثم واصلا السير، وإذا ببعض الصبية الصغار يلاحقونهما حاملين علب المحارم الورقية أو الدبابيس وبكلات الشعر أو الألبسة الداخلية.

"اشتر مني هذه العلبة.. الله يخليكي. إنها رخيصة"

طفل يلح فتنقده لامار بعض النقود وتقول "احتفظ بالعلبة يمكنك أن تبيعها لغيري".

لكن الطفل رفض بشدة وأعطاها العلبة، ثم تبع طفل آخر كناناً طالباً منه شراء ما معه فقال كنان ضاحكاً "فتحتِ علينا باباً يا لامار لن يغلق اليوم".

توجها إلى منطقة النوافير التي تنطلق من بحيرات صغيرة في آخر السوق وجلسا على الدرجات الحجرية يتناولان بعض العصير وينظران السياح والزوار، بعضهم يتفحص البضائع التقليدية في المحلات المجاورة والبعض يتأمل الأبنية التراثية العتيقة وآخرون جلسوا حول الطاولات يأكلون أو يشربون أو يدخنون النراجيل.

"لامار يجب أن تعودي إلى القصر، تأخر الوقت" همس كنان في أذنها.

وقف يرقبها وهي تبتعد وبين خطوة وأخرى تلتفت وتلوح له بيدها فيرد رافعاً ذراعيه عالياً وملوحاً إلى أن اختفت عن ناظريه.

لدى وصولها إلى القصر كانت الساعة تجاوزت الثالثة بعد الظهر. رأت سيارة عمها في الكراج وكذلك سيارة فراس. عادا من العمل لتناول الغداء. دخلت

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

مسرعة عبر بوابة الحديقة باتجاه القصر، وعندما كانت على وشك الولوج في باب الفيلا انتصب فراس أمامها فجأة واستوقفها قائلاً "أين كنتِ؟".

نظرت في وجهه مرتبكة وأطال التمعن في عينيها. قالت بتردد "كنت أتريض".

راح يحدق في وجهها متفحصاً وهو يرى ذلك البريق الغريب في عينيها وتورد خديها وشفتيها. كيف حدث هذا الاختلاف؟ أين ذاك الشحوب والنظرة الناعسة الحزينة التي طالما رآها في عينيها!

اقترب منها أكثر حتى كاد يغمرها وأصبح وجهه ملاصقاً لوجهها وعيناه تحملان هياماً ولوعة وشفتاه تحثانه على تقبيلها، وبقيت هي جامدة في مكانها ترتجف. وإذا به يبتعد ويعتدل بوقفته ويقول بنظرة غاضبة "ولماذا لا تصطحبين المشرفة عندما تخرجين؟ يجب أن تفهمي أنه محظور عليك الخروج بمفردك؟".

لم تجب بل حدجته بنظرة حادة وأسرعت إلى الداخل.

تكذب، ولأول مرة، ولا تندم. تخطئ ولن تتراجع. ستفتح كل الطرقات الممكنة.

في تلك اللحظة اشتعلت النار في قلب فراس بسحر هذا الوجه المتورد والغاضب في آن، والنظرة البريئة والحادة في آن. تاه بين اشتعال الحب وكموده في قلبه. أراد أن يضمها، أن يفعل شيئاً لكنه وقف مشلولاً.

كانت أنظار الجمع على المائدة تتنقل بين أطباق الطعام ووجه لامار الذي اكتسى بحمرة زادت جمالها أضعافاً. ولم تكن تعرف كيف ترد عن نفسها نظرات التساؤل في وجوههم إلى درجة جعلتها تشعر بالدوار وكأنهم اكتشفوا أمرها وعلى وشك أن ينزلوا بها حكمهم بالإعدام. مضت الدقائق ثقيلة وطويلة وأصوات الملاعق تضرب في قلبها ورأسها وعقلها.

انسلت سريعاً إلى غرفتها مع انتهاء الطعام. ضمت الوسادة إلى صدرها وراحت تدور حول نفسها هامسة "أخشى أنك ستفقدني يا فراس.. أخشى أننا على وشك فراق نهائي.. لو ضممتني إليك.. لو بحتَ لي.. لو رجعت طفلاً.. لو عدتَ صديقي.. لربما انقلب كل شيء.. لكنك ستبقى في إسار عنادك وكبريائك لا تراني سوى صورة سقيمة من ماضٍ انتهى.. أنت زمن ضاع في الأزمان.. أنت كنت ولم تكن.. أنت وهم، يا فراس... تتسرب من بين أصابعي كرمال الصحراء... وكنان.. كنان.. أنت حياتي الجديدة القادمة.. أنت صخرة النجاة في بحري المتلاطم.. وهم تلاشوا جميعاً.. تلاشى الزمان والمكان والإنسان وصار الكون لنا وحدنا.. هم بعيدون.. بعيدون جداً إنهم هناك يأكلون طعامهم وأنفسهم.. وأنا وأنت نرقص رقصة الأزلية في قبة السماء".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفصل الثامن

رآها في الحلم.

"أهلاً بكِ في عالمي".

قال كنان وهو يتابع لامار بنظره تتجول بهدوء في أنحاء شقته المتواضعة وتنظر حالمة إلى لوحتين باهتتين على جدار الصالة الصغيرة، ثم تدخل غرفة نومه كنسمة خفيفة وتتأمل سريره الضيق المغطى بملاءة فضية اللون ثم لوحة قديمة لفتاة صغيرة تمسح على حصانها.

توقفت طويلاً عند اللوحة. سمعها تقول دون أن تتحدث "جميلة هذه اللوحة تذكرني بطفولتي. من أين جئت بها؟".

لم يجب، كان يريد الحديث في شيء آخر لكي لا ينكأ جروحاً فتطغى ذكرى الحصان على المكان. وكأنه قال لها بعينيه "من سوق قديم".

وجد نفسه في المطبخ يعد شراباً. عاد إلى الغرفة حاملاً صينية وعليها كؤوس العصير. لم يجدها. أحس بمرارة في أحشائه. غادرت كطائر أبيض وغرق في أنهار حزن عظيم لم يختبره من قبل. فجأة تراءت له من جديد في زاوية الغرفة كطيف جميل يبتسم له. كانت عارية تماماً، وشعرها الطويل مسبلاً فوق جسدها، ما جعله يقف جامداً في مكانه ينظر إليها بذهول. وقف مرتبكاً حائراً مشوشاً. لم يمرّ بمثل هذه اللحظة في حياته قط. لم ير شعرها من قبل بهذا الانتشار والثورة. اقتحم النهدان المكوران شلالات الشعر المنهمر في كل مكان كجزيرتين رمليتين وسط محيط هائج، وانعكس بريق الشمس في بياض فخذيها البضين واضمحل الوجود في ضمور خصرها النحيل ومرح الانحناءات في ردفيها وكتفيها.

رؤى غامضة مشوشة في عقله. تراءت له تمثالاً من آلهة الإغريق انتصب فجأة وسط غرفته. كان يرى تلك التماثيل العارية في الصور وفي كتب الأساطير والأفلام فيعجب لبراعة نحاتيها وتناسق أجسادها وانسيابية حركتها وغرقها في ديمومة الثبات وكأن الزمن توقف عندها فلم يعبر الأحياء بعدها الى زمن آخر.

يرى لامار في حلمه أشبه بقصة جمال غابر. فينوس عادت حية. تتنفس. تنظر بعينيها الناعستين وتنتظر. أسطورة لم يتخيل يوماً أن يعيشها في الحلم، لا ليست خيالاً إنها حقيقة. ها هي تقف أمامه. راح يتأملها ساهماً ومرتبكاً. يتعبد في محرابها ويصلي لجمالها ويرتل قصائد لعينيها اللتين احترق بدعوات الشهوة الجامحة فيهما. تدعوه إليها.

إنه في أقصى درجات السعادة والنشوة. كيف له أن يلمس جسداً نحت من المرمر وخُلق إبداعاً إلهياً يستدعي التأمل. تلك الأنوثة الناعمة المفعمة بالبراءة تضج بإيحاءات جنسية صارخة تدوخه تفقده التوازن وتضيع خطاه.. حائر.. متردد

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

كيف له أن يدفع عن نفسه كل هذا الدفق الأنثوي الغامر. الحب يعصف في قلبه فيجعله مجنوناً خارج الوعي. اقترب خطوة واقتربت خطوات تنظر بثبات في عينيه، لا ليست مترددة كترددة. كان كل شيء فيها إيحاء متمرداً يقول إنها لن تكون حورية من حوريات الجنة، هي حواء الأرض وليست حواء السماء. لا تريد أن تكون ملاكاً طاهراً مسالماً في فردوس غارق في الأبدية، هي كأمها حواء لن تبقى أنثى عاقراً في دفاتر فضيلة جامدة لا تنتهي بحياة.

ردد في عقله "لن أبقى مشتولاً نبتة مهملة على قارعة الزمن القبيح.. لن أكون مُقعداً على كرسي متحرك بالظروف". غرق في لذة يعجز عقله عن وصفها. يتشكلان داخل الحلم ذاكرة متمردة صاخبة تكسر كل القوانين وتطيح بالخرافات. يلتصق بجسدها ويتيه في رحابها. يطير ويعود ليتعلق بأهدابها. وإذا بها تتلاشى فجأة من بين يديه كغيمة بددها الشعاع. فتح عينيه ونهض وظل جالساً في سريره ينظر حوله في أرجاء الغرفة ويصغي إلى السكون.

"يا له من حلم! تلاشى الوجود في غمرة ذلك التوحد وتاه العقل وشردت الخطوة. حلم مجنون لا يشبه أحلامه. كيف وصل إلى هذا المقام؟ ابتسمَ. "في جنون الجنون عقل واتزان وحكمة" هكذا قالت لامار يوماً. رأى داخل كهوف اللذة شلالات سكينة وينابيع ارتواء ونجوم تبتسم. "كيف خلقنا الله هكذا؟ لا حدود لانعتاق الروح.. لا حدود لهذيان القلب.. لا حدود لجنون الحب.. لا راد لحكمه لا راد لقضائه". لا ليس كل ما تراه أعيننا في الحياة هو الحقيقة، هناك حقيقة أخرى لا نراها خلف الأشياء، هناك طموح ورغبة في الوصول لهذه الحقيقة الأخرى التي غيَّبها البشر. تساءل "هل وصلتُ اليوم إلى الحقيقة الجوهرية في حلمي؟".

كانا يركضان كفاهما متشابكان وصوت ضحكاتها في خلفية حواره العقلي:

"أيا لامار أنت خطيئتي، وأنت تعبدي وتهجدي وصلاتي.. أيا لامار أنت طهري وعبثي وأنت سجني وحريتي.. بك تهتز صروحي ومعتقداتي وبك أعتلي البروج وأدوس الخوف والمحنطين. أنا بك عاصفة تقتحم وأنا بك ريشة تنفخها النسائم.. كيف أكون بك الإثنين معاً؟ كيف أكون؟ قبلك كانت أحجاري مرصوفة بإحكام منذ القدم وبعدك تبعثرت أحجاري وتحولت أشكالاً عصية على فهمي".

ها هي واقفة تنظر بعيداً إلى الجبال صامتة هائمة. تراءت له خيال فتاة ضاحكة تطير بجناحين. تدور فوق التلة حول نفسها فاردة ذراعيها، تصرخ والصدى يردد كلماتها:

"أنا لامار نيتشه.. أنا حورية الأرض.. أنا اليوم معك ولدت من جديد.. أنا اليوم مساحات خضراء وأنت غيثها.. أنا اليوم تبر الأرض وأنت عبقها.. أنا رقص كلمات وحروف.. أنا أرقام مزدوجة ومفردة.. أنا كل الصور.. أنا كتب التاريخ والحاضر والمستقبل وكل الأزمان".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وقف يضم ذراعيه وينظر إليها مبتسماً صامتاً دون أن تلفت إليه. لم تكن ضاحكة ولم تكن تدور حول نفسها. كانت واجمة شاردة وقوية. تصنع نفسها ويصنعها بخياله. يتنفسها يشربها يمتصها فتسري ماء زلالاً بين أوصاله. إنها لامار، تجربة الحلم والواقع، وبها ومن خلالها أيقن أنه فكك حبالاً تخنقه، تحرر منها بالحب، وأن الحب أقوى من كل شيء. أدرك أن لامار هي الأقوى بتخطيها قيود الحدود، ومن جرأتها تمنحته جرعة كبيرة من القوة. إنها لامار نيتشه تصرخ في قلبه "لا تسر مع النهر بل كن النهر نفسه".

حدثها عن حلمه فابتسمت. لم تر الجسد خطيئة. بل هو الأرض. يولد فوقها ويعجن بترابها عندما يفنى. ولكن هناك وجه آخر للمسألة. تحدثتْ عن الروح وتجربتها الخطيرة. وقالت يمكنها أن تعبر سبع سماوات وأن تنهل من معين مقدس وتغتسل من أدران الدنيا "كنان، إذا لم تلتقِ الأرواح لا معنى للجسد.. ".

راح ينظر إليها حائراً، لم يتبادر إلى ذهنه مثل هذا الجدل من قبل. هل إن روحها لا تزال تسبح بعيدة عن روحه؟

وبين الروح والجسد والخطيئة والفضيلة يظل كنان ولامار متأرجحين فوق ميزان الحقيقتين.

في اليوم التالي تشابكت أيديهما عندما التقيا على الطريق الزراعي أشارت لامار بيدها إلى الطريق الممتد قائلة "كم أحب هذا الامتداد الذي يوصلني إليك".

أجاب مبتسماً "لكنه لا يقود إلى بيتك ولا إلى بيتي وربما لا إلى روحك.. ".

قالت بعد صمت "لا أدري أين هي روحي، يا كنان، ولكن إذا كان طريقانا منفصلين فإن قدرنا صار واحداً"

قال فجأة "أحس وكأن أحداً يلاحقنا، لمحتُ شخصاً هناك قريباً من الأيكة".

التفتت لامار فشاهدت شخصاً يتوارى سريعاً ويركض بين الأشجار وعندما وصل إلى الطريق السريع استقل سيارته المركونة على جانبه وانطلق. صرخت لامار "يا إلهي!". عرفت أنه أحد حراس القصر بعد أن شاهدته يستقل إحدى السيارات التي يمتلكها عمها. أيقنت أنه كان يراقبهما. أسقط في أيديهما. سيعرفون بقصتهما إن عاجلاً أم آجلاً.

"هذا أفضل دعيهم يعرفون الحقيقة. اتصلي بي عندما تصلين لأعرف ما حصل معك، سأبقى مشغولاً عليك حتى تتصلي بي" قال كنان.

إنه فراس وتلك هي لحظة الحقيقة. تخشى هذا اليوم وتنتظره. سينتقمون من كنان. أفكار كثيرة في رأسها وهي تدخل القصر.

الأفكار ذاتها تتلاطم في رأس كنان. جلس بقية النهار يفكر إلى أن أعيته الحيل وأصيب بالصداع غفا على الكنبة الطويلة لبعض الوقت، فرأى لامار مرة أخرى

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

تنتظره على الطريق الزراعي. عندما رأته ركضت باتجاهه فاردة ذراعيها وكلما اقتربت أحس أنها ابتعدت، تقترب فتغمره سعادة عظيمة وسرعان ما تبتعد ثانية فيتألم بشدة، ينز جبينه عرقاً. صور نجوم تلمع في رأسه، وأناس يتحدثون في مكان لا يعرفه، وهادي يكلمه ولا يفقه ما يقول ثم طائرة تحلق فوق الأشجار وفجأة تطلق نيرانها في كل اتجاه ويهرب باحثاً عن مكان يختبئ فيه. فتح كنان عينيه لوهلة ثم عاد واستسلم لنوم عميق.

حلم سكن رأسه وراح يؤرقه ويزرع الوساوس في نفسه طوال النهار.

في صبيحة اليوم التالي كان كنان يرشف قهوته وينظر إلى الهاتف علَّ لامار تطمئنه ولكن الهاتف التزم السكوت طويلاً.

فجأة دق باب البيت بقوة شديدة وكاد ينكسر، وما أن فتحه حتى اقتحم أربعة رجال الشقة وفي مقدمتهم فراس. عاجله الرجال بالصفعات والضرب المبرح، وكانت اللكمات صواعق تنهال فوق وجهه وبطنه واللعنات والسباب تنقذف من فم فراس فتزلزل الأرض تحت قدميه "أيها الكلب الحقير.. كيف تتجرأ على الإقتراب من قصرنا.. كيف تتطاول على أسيادك أيها الحشرة.. أنت جرثومة.. أيها الحيوان، اليوم سنلقنك درساً لن تنساه طوال عمرك لتعرف حجمك وحقيقتك".

تتواصل اللكمات. تأتيه من كل مكان من فوقه وتحته ويمينه وشماله.

يخوض معركة طالما انتظرها وخشيها "اصمد يا كنان! اصمد يا كنان.. أيها الضعف المستلقي بي ارحل.. أيها الخوف المتساقط من خلاياي لا تسقطني ورقة صفراء.. قسمي يرقص بين فكي المصطكين ويديَّ المرتعشتين.. ساقاي تشلان جسدي.. أقسمتُ بعينيكِ أن أتحدى الموت.. أقسمت بحبكِ أن أتحمل الأذى".

ينزف بشدة من أنفه وفمه، ينزف دماً وينزف نقمة وينزف حقداً. يكاد يفقد بصره، هناك غباشة أمام عينيه "ألعق جروحي النازفة.. أمضغ ألمي.. أقسمت بالتراب الذي تطأه قدماك أن انغرس فيه شجرة عميقة الجذور.. أقسمت بالإله الذي خلقك أن أكون متعبداً في محرابك.. وحده الألم من أجلك يحررني.. وحده ذلك البركان في داخلي يعتقني". الغرفة تدور به وتدور لم يعد قادراً على الوقوف.

ارتمى على الأرض بين الوعي والغيبوبة ومن خلف الغباشة كان يميز وجوه الرجال تتفجر غضباً، وكلمات فراس يتردد صداها في أذنيه "إذا اقتربت من لامار بعد اليوم ستكون نهايتك.. ستموت أتفهم.. ستموت".

يحاول أن ينهض فيتلقى مزيداً من الرفسات بنعالهم على وجهه وبطنه "أهترئُ.. أهترئ.. انهض يا كنان انهض.. أنتم أيها الغرباء المظلمون من الداخل تفرضون الظلمة. أنتم يا بائعي الخوف والقهر متى سترحلون؟ سأنهض.. أقسمتُ بطهركِ أن لا أقبل بنصف حياة، أن لا أكون نصف إنسان. أقسمت أن أكون حتى

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ولو لم أكن.. ".

"وحده الألم من أجلك يحررني.. "

غادروا وتركوه مهشماً فاقد الوعي بلا حراك وقطرات من دمه تتساقط على الأرض.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفصل التاسع

عندما استعاد وعيه وجد كنان نفسه على الأرض وبقع الدماء تغطي وجهه وثيابه وتحيط به من كل جانب. تحامل على نفسه وزحف نحو الهاتف ليتصل بصديقه هادي "تعال فوراً أنا في وضع سيء".

ومرة أخرى زحف كنان إلى الباب وتعلق بمسكته ليتمكن من فتحه.

ذهل هادي لمنظره "ماذا حدث؟ ماذا فعل بك الأوغاد؟ كنت أتوقع شيئاً كهذا" كان يردد وهو يضمد جراح صديقه.

نظر إلى كنان طويلاً الذي كان مغمض العينين وممدداً فوق الكنبة ثم قال "لقد حذرتك من هذا الحب إنك تودي بنفسك إلى الهلاك".

فتح كنان بصعوبة عينيه المتورمتين وهالات زرقاء وحمراء تحيط بها وقال "إنني أحبها.. لامار لي.. ولن أتراجع".

"سيقضون عليك أيها المغفل.. ".

"وهل هناك أكثر من الموت. لا حياة لي من دونها"

"لا بد أنك جننت.. ".

"تحذرني من هذا الحب وأنت تعرض نفسك لخطر أكبر بما ستقدم عليه.. يا صديقي كلانا في الهمِّ شرق".

"لا أدري يا كنان إلى أين نحن ذاهبان.. إننا في غابة الوحوش".

"هادي، أحس أني أولد من جديد من عمق هذا الألم. هناك لهيب يتقد في داخلي ويزداد اشتعالاً. لم أكن أحسه من قبل.. لم أكن أحسه.. إنني استمرئ هذا التحدي.. لدي رغبة قوية في الانتقام.. سأنتقم.. لن أسكت.. " عاد كنان ليغمض عينيه ويصمت.

في القصر تلقت لامار صفعة قوية من عمها عندما وصله خبر خروجها مع شاب من الرعاع كما أسماه

"أنت تهبطين إلى الدرك الأسفل بعلاقتك مع رجل من الشارع، هؤلاء المتسولون نحن ندوسهم بالنعال لأنهم ليسوا سوى حشرات وأنت تصادقين أحدهم. هل جننتِ؟ أنت تلوثين نفسك وعائلتك بفعلتك هذه.. كنت أظن أن لك عقلاً تميزين به ما هو في مصلحتك.. ولكنك للأسف أثبت لي أنك ما زلت تراهقين وتبحثين عن مغامرة رخيصة".

أجابت بحدِّة مدركة أن معركتها بدأت "لا ليسوا حشرات، بل هم بشر مثلنا ولهم حقوق استلبناها منهم".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وجَّه عمُّها صفعة أخرى له زاغ منها بصرها وترنح جسدها وهو يصيح "اخرسي.. ولا تعطيني أجوبة حمقاء وغبية".

أمسك بشعرها وراح يلوحها يمنة ويسرة إلى أن قذف بها إلى الأرض بقوة مهدداً "لم تجربي بأس عمك بعد.. هل سمعت عن هوله؟ سأرمي بهذا الكلب الذي تعشقينه إلى المجهول لو سوَّلت لك نفسك لقاءه بعد اليوم. إياك أن تفعلي.. إياك.. هيا اذهبي إلى غرفتك ولا تخرجي منها إلى أن أسمح لك بذلك.. هيا".

أمر عمها الحراس بمراقبتها ومنعها من الخروج لو حاولت، وأما فراس فهددها بقتل كنان وجرَّدها من هاتفها النقال وطلب منها الاستعداد للزواج منه خلال شهر.

امتنعت عن الأكل واحتضنها السرير أياماً في ذبولها وضعفها ورفضها. تشيح بوجهها عن الطعام كلما جاءت به المشرفة مريم "اخرجي، يا مريم، هيا اخرجي.. لا أريد طعاماً.. لا فائدة.. لا أريد أن أعيش.. لا حياة لي في هذا البيت.. لن أبقى على قيد الحياة.. أريد أن أموت.. ".

في صباح وجدتها مريم مغمضة العينين دون حراك وضعت يدها على جبهتها "يا إلهي حرارتها مرتفعة جداً". كان جسد لامار يشتعل. نقلت الخبر إلى زوجة العم فأمرتها أن تضع لها كمادات الثلج على جبهتها. كانت مريم تردد "أي قلة حيلة هذه يا الله؟ احمها يا رب.. ساعدها".

راحت مريم تراقب لامار تهذي "لا تقتلوه.. لا تقتلوه.. ".

تستمر لامار في الهذيان، وتضرب مريم كفاً بكف وتمشي جيئة وذهاباً من باب الغرفة إلى سريرها "يجب أن يراها الطبيب إذا تركوها هكذا ستموت. لعلهم يريدون موتها. أي قلة حيلة هذه؟ ماذا أفعل يا إلهي".

هرولت خارج الغرفة إلى مكتب أدهم الجمري تتوسل إليه "أتوسل إليك يا سيدي أن تأتي بالطبيب.. لامار تكاد تموت. إنها تموت".

نهرها بالقول "اخرجي الآن.. اغربي عن وجهي لا أريد أن أرى أحداً.. ".

أدركت مريم أنه لن يحرك ساكناً، خبرتْ قسوته وغضبه. يصبح أشبه بصخرة ضخمة تتدحرج من أعلى جبل وعلى وشك أن تهرس الجميع تحتها. توجهت إلى داليا علَّها تساعدها، وكان جوابها بعد أن مطَّت شفتيها كعادتها "الأمر عائد إلى عمها.. ".

لم يبق أمامها سوى فراس "ساعدها، يا سيدي، أرجوك.. استدع طبيباً".

دخل فراس غرفة لامار وأمر مريم أن تخرج منها. وقف طويلاً يتأمل وجهها الشاحب وسكون جسدها كجثة مسجاة في كفن.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

"أنتِ اليوم ميتة. يجب أن تكوني.. أنفاسك تتباطأ وعيناك غارقتان في العدم.. تستحقين الزوال.. قادر هو الموت.. يلتهم كل شيء.. ينهي كل شيء. فظيع الموت حباً.. تركلين الحياة بقدميك من أجله.. إذن لأكنْ أنا اليوم موتكِ.. أنا اليوم موتك.. سأعلمك كيف ترقصين في ساحاتي وليس لك من خيار لأنك لم تؤمني يوماً بقدراتي.. لم تشعريني يوماً. عزفتِ قيثارة غيري وارتكبت الخطيئة فتعاقبين. أنت ماضٍ عشقته واليوم قررت أن أمحوه.. أن أدمره. إذا كنتِ أنت الخير فأنا الشر ولا وسط بينهما.. لن يقف الضمير عقبة في طريق إرادتي. إنه زمن الشيطان ولا وجود للملائكة فيه. لو خطر للآلهة أن تنتشلك من هذا الفناء فستحترق بسخطي".

كان العرق يتصبب من جبهة لامار بغزارة لكنها ظلت من دون حراك، واقترب فراس بوجهه من وجهها ثم مسح على جبهتها ونظر إلى يده مبللة بعرقها فتدفقت دموع إلى عينيه فجأة، ركع عند سريرها ودفن رأسه عند يدها وراح يجهش:

"لمَ نحن هكذا؟ لم نحن شياطين في لبوس بشر؟ لم نحن أبناء هذا الزمن الزاني؟ بل نحن الزناة العتاة القساة القتلة الذئاب نبتلع كل شيء. نحن طوفان الجشع والمال والسلطة نجرف كل شيء في طريقنا.. إذا ما متِّ يا لامار سيكون موتك خطيئتي الكبرى.. سيكون موتي.. ومع هذا لا أستطيع أن أتوب! أنا غرقتُ يا لامار.. أعرف أنه لن ينقذني أحد سواكِ، ومع هذا أنا عازف عن أمسك بيدك الناصعة لتخرجني من اليمِّ الهائل الذي يبتلعني.. ها أنت تبتعدين وتنظرين تشوُّهي وتلوثي.. ساعديني.. مدِّي يدك لي.. أنت حبي الذي كان.. أنتِ دنياي ووجودي وطفولتي وذكرياتي.. أحبكِ وعشقي لك جنون.. أنتِ وهجي يضيئني ويحرقني ويقتلني.. لا لم أكن صادقاً إذ قلت إني أريد موتك.. إنني كاذب يا لامار.. أنا كاذب يا لامار.. لا أريد أن أموت.. لا تقتليني. عودي.. عودي..".

خرج فراس من الغرفة مسرعاً وأمر مريم أن تستدعي الطبيب فوراً. وضع السائل المغذي في عروقها وبدأت لامار تستعيد وعيها وعافيتها تدريجياً.

مضى نحو أسبوع واندملت جروح كنان قليلاً لكن جرح قلبه ظل ينزف بشدة. لم يكن يدري ما حدث لحبيبته. كان ينتظر رنين الهاتف كل ليلة علَّها تكلمه. مشى على غير هدى في طريقه إلى منزل صديقه هادي والدموع تتزاحم في مقلتيه:

"أبحث عنكِ كالمجنون بين كل البشر.. تائهاً في الزحام متفرساً في الوجوه علَّني أراك.. الطيور تحليقكِ الأزلي.. همس الشجر سيمفونية كلماتك والريح تمردك.. الطريق الزراعي صدى خطواتك.. أبكي ضحكاتك. أين أنت يا لامار؟ أين أنت؟ في حضرة الانتظار تضمحل الروح ويعم الشحوب.. أنتظر.. دائماً ننتظر شيئاً ما ولا نعرف ما هو.. كم هو بشع هذا الانتظار والأبشع منه هذا الفراق.. كم هو

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

موجع هذا الفراق.. أخاف عليك يا لامار. داخلي يلتهم داخلي والأفكار تأكلني وتمضغني وتتقيؤني. وهل كان الحب يوماً من دون ألم؟ وهل علي أن أخاف من هذا الحب؟ الخوف من الحب هو خوف من الحياة والخوف من الحياة هو موت.. عظمة هذا الحب في ألمه.. "

خطرت له أفكار شتى في صراعه وتذكر أن كل ما هو عظيم لا بد أن يمر على طريق الآلام. أوَ لمْ يمر المسيح على هذا الطريق حاملاً رسالته العظيمة إلى الإنسانية؟ أو لم يعذب جاليلو لأنه نادى بنظرية دوران الأرض حول الشمس؟ أو لم يرغموه أن يركع ويقول إن الأرض مسطحة وركع وقام ليقول إنها كروية. سيرغموننا على الركوع وسننهض.

"اسمع يا هادي أريد الانضمام إلى مجموعتكم، سأنضم إليكم لأكون سنداً وعوناً لكم. أنا معكم منذ هذه اللحظة".

كان قرار كنان مفاجأة لهادي الذي يعرف تماماً طبيعة صديقه المسالمة إلى درجة أنه نعته مرات بالضعف والجبن وانتقد سلبيته تجاه الأشياء واكتفاءه بقراءة الكتب ونظم القصائد الشعرية وممارسة حياة منكفئة وبسيطة لا تحدٍ حقيقياً فيها سوى أحلام تبقى في الذاكرة وتموت مع مرور الأيام. رغم تأففه كان كنان أجبن من أن يرفع صوته أو يوجه نقداً إلى أحد. كان يتحاشى المواجهة ويقبل ما فرض تفادياً للجدل أو إثارة الخصومة. وكثيراً ما ضاع حقه في غمرة التهافت والجشع.

بعد صمت طويل هلل هادي بقرار صديقه قائلاً:

"أهلاً بك معنا، يا كنان".

قال كنان "إنه الحق.. أن تطالب برفع الظلم فهذا حق غير قابل للصرف أو للتصرف به أو للجدل بشأنه.. سأحارب من أجل كل شيء، ومن أجل هذا الحب. سأحاول أن أعيش أمام الموت الذي يتربص بي في الزوايا. معركتي ستكون أولاً مع نفسي ضد الخوف. إنها معركة كبيرة. سأواصل قتاله. سأنضم إليكم لأحرر نفسي ولامار".

قال هادي "نحتاج جميعاً، ولست أنت فقط، إلى ثورة نفسية أو كونية أو بركانية.. أو لا أدري ما يمكن أن أسميها..".

قال كنان "أين هي القيم؟. الشر يهيمن منذ أقدم العصور والقيم باتت أوهاماً".

قال هادي "أوافقك. جميلة هي المثل والنظريات والتمنيات، إنما الواقع مخيف. ولكن لا بد من المحاولة. لا يمكن أن نبقى صامتين كصمت القبور حتى الموتى يحسّون بما يجري حولهم ونحن بتنا أدنى بدرجات من الأموات. يجب أن تدرك يا كنان أن الأخطار محدقة بنا كيفما اتجهنا، ولكن نحن من اخترنا هذا الطريق ولا بد من الحذر الشديد وتحمل النتائج، نحن مجموعة لا تتجاوز السبعة أشخاص

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

سأبلغك عن يوم اجتماعنا القادم".

في اليوم المحدد توجه كنان إلى العنوان، كان البيت في إحدى حارات المدينة القديمة. دخل بين زواريب أزقة مظلمة خلت من الإنارة إلاّ من مصباح صغير بنور باهت معلق على عمود يظهر بين الفينة والأخرى. كانت الساعة تجاوزت العاشرة مساء، وكان يسمع ضربات قلبه وخطواته فوق الحجارة القديمة المرصوفة دون انتظام "التفت المدينة بالعتمة التي لفت حياتنا، نبني أوهاماً فوق بحور الأسى.. الأسى يغلفنا ويدفعنا.. أي مغامرة خطرة تلك التي أخوضها" كان يردد في عقله. أحس بقشعريرة في جسده رغم حرارة الصيف.

دق مقرعة الباب القديم النحاسية التي كانت في شكل وجه أسد. انتظر بضع دقائق قبل أن يفتح له الباب

"من؟" قال قائل من خلف الباب.

"كنان" أجابه.

فُتح الباب وخرج منه شاب راح ينظر يمنة ويسرة قبل أن يسمح له بالدخول إلى الباحة السماوية في المنزل ومنها إلى إحدى الغرف المتعددة على طرفيها.

رحب به الشباب المجتمعون وبدأ هادي بالحديث قائلاً:

"لا أحد يحس بما نعانيه من فقر وما نتعرض له من غبن.. الفساد هو السبب وهو ما نريد التصدي له، الهدف من اجتماعاتنا كشف بؤر الفساد والحصول على حقوقنا.. بالأصل وضعت قوانين تتغير مع تغير الظروف لصالح حماية الفساد والفاسدين.. هؤلاء يأكلون الأخضر واليابس وينسون المهمشين أمثالنا.. حتى الحوافز منعوها عنا بحجة عدم وجود ميزانية، وإذا حصل وأقرُّوا بها في سنة ما يبتلعون معظمها.. ".

تابع ماهر:

"إنهم يتخلصون من كل من يكشف ألاعيبهم ويرفض مجاراتهم حتى أنهم يلفقون التهم لطرد أي عامل بشكل تعسفي وغير قانوني.. ".

عاد هادي ليقول:

"الغرض من كل هذا هو إذلالنا وترهيبنا من خلال لقمة عيشنا.. وهؤلاء يتلاعبون بكل شيء وبالمال العام والمشاريع ويفبركون في الإعلام إنها شبكة أخطبوطية تمسك بتلابيب البلد من كل الجهات.. "

صمت هادي قليلاً ثم تابع "يجب ألاَّ نواصل الصمت. والله يا جماعة تمر علينا أيام نعيش فيها على الكفاف ولا نقدر على الكلام بسبب الخوف والطرد.. القبر سيوفر متسعاً من الوقت للصمت كما قال المفكر كريستوفر هيتشنز، لا تقف أبداً موقف المتفرج من الظلم أو الغباء.."

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

قال كنان "يقول نتيشه..".

فقاطعه أمجد فجأة "أو تحمل نيتشه معك أنت أيضاً؟ والله يا أخي يكفينا نظريات.. هادي حمل معه هيتشنز وأنت نيتشه.. ما هي قصتكم اليوم؟".

ضحك الحاضرون فتابع أمجد "الآن حان وقت العمل.. يجب ان نفعل شيئاً.. ".

قال كنان "عن جد.. اصغوا قليلاً يا جماعة.. الكلام جميل.. يقول نيتشه (الفساد ليس سوى واحد من مصطلحات احتقار الفترة الخريفية لشعب ما، إنه ذلك الزمان الذي تسقط فيه الثمار من الشجرة). فقال مصعب "لم أفهم.. عدم المؤاخذة".

فعلق كنان بالقول "هذا يعني آخر مرحلة من انحدار البلد نحو الهاوية ويتبع هذا السقوط خروج جيل جديد ليكون براعم لثمار جديدة.. ".

قال سامر "أصبحنا في المرتبة الأخيرة على سلم الحضارة أو ربما سقطنا كلية عن هذا السلم لأننا في تراجع مستمر.. أبإمكان ما كان أن يأتي بزمن أفضل؟ براعم جديدة؟ أشك في ذلك. أعتقد أن الجميع يعيشون متلازمة ستوكهولم التي استشرت بينهم.. يتقبلون الظلم والقمع ويرضون بهما سمة لحياتهم لأنهم اعتادوا على ذلك".

قال طارق وكان متكئاً على حشية بجانبه وعدَّل من جلسته "الأجيال القادمة لن تقبل أن تعيش في البيئة القمعية الفاسدة كما عاش آباؤهم. إنهم سيتحركون وسينتفضون. إنما لا بد من محرك يحطم غريزة القطيع ويطلق الشرارة".

عاد أمجد ليقول "نحن من عملقنا وضخمنا هذا الطاغوت الذي اسمه أدهم الجمري وجعلنا منه قصة مخيفة بطاعتنا الطوعية وقبولنا الخضوع يقول المثل: فرعون مين فرعنك قال ما لقيت حدا يردني.. ".

تواصل الحديث لنحو ساعة من الزمن ولاحظ كنان أن أحد الشباب لم يشارك في الحديث كالآخرين واكتفى بالاستماع والتفرس في الوجوه. انفض الجمع وخرج كل في طريق مختلفة وعلى فترات زمنية متباعدة لكي لا يلفتوا الأنظار.

في طريقه إلى البيت كانت خطواته أكثر ثباتاً على الأرض وكان تنفسه أعمق. تترسخ شجاعة في أوصاله.. تسخر.. تطيح.. كيف تشكلت؟ حماسة تملؤه بالجنون تدفعه للإبحار في محيط متلاطم تسبح فيه أسماك القرش والثعابين السامة والعقارب وكل أشكال الخطر. دخل حرباً ضد نفسه ويبدو أنه في هذه اللحظة انتصر فيها وسيبدأ حرباً أخرى ضد القبح المحيط به. يشعر أنه بهلوان على حبل، وعليه أن يتماسك أثناء عبوره فليس له أن يقع. جروحه تحفزه وتستنهض شجاعته. إنه إعلان حرب كبرى على كل شيء وعلى ضعفه قبل كل شيء. تحطيم الأصنام ليس بالهين والعالم مليء بالأصنام. من أين يبدأ؟ كيف

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

يبدأ؟ هل هو في حالة هذيان؟ هذيان اللاحقيقة؟ هل يعاني حالة انفصام؟ هل يعيش خرافة التغيير؟ هل هو محمول على أكتاف الرومانسية في هذه اللحظة؟

هل هو ولامار سبقا زمانهما أم أن الزمان هو الذي تخلف عنهما؟ إنه زمن السوء ولا يدري هل سينتقم زمن السوء منهما؟ هل سيعلن حربه ضدهما؟

عندما وصل إلى البيت كانت الساعة تجاوزت الثانية عشرة. جلس ينتظر رنين الهاتف كعادته. إنه بحاجة لأن يسمع صوتها، لا بد أنها اتصلت ولم تجده. يسمع الرسائل الصوتية على الهاتف ليس بينها صوت لامار. يكاد يُجن. صفائح حديدية ثقيلة تضغط على رأسه وتهرس عقله وتؤلمه، لا يستطيع رفعها. ديدان التمزق والتبعثر والتعب قامت من تكورها وغفوتها وعادت لتنخر في شجاعته وتلقي به في مهاوي الضعف والتردد من جديد.

وفي ذات ليلة تهادى صوتها إليه عبر الأثير "كنان".

"لامار، حبيبتي أين أنت؟ أكاد أجن ماذا حدث؟"

"لم أستطع الإتصال بك، يا كنان، كنت مريضة جداً. امتنعت عن الطعام لأنهم قرروا سجني. لا رغبة لي في الحياة.. "

"لامار هل جننتِ؟ كيف تعاقبينهم بمعاقبة نفسك؟ أرجوك يا لامار حافظي على نفسك من أجلنا معاً"

أخذت تبكي بصوت خافت وكنان يسمع نشيجها فتتقطع نياط قلبه، قالت "أعرف أنهم اعتدوا عليك بالضرب.. أعتذر منك، يا كنان، آسفة لما حدث لك.. لا أدري ما أقول.. أنا التي قدتك إلى كل هذا.. ".

"لا تعتذري يا لامار.. هذا خياري.. وليس ذنبك.. أنا راضٍ بهذا الخيار.. ".

"أحبك يا كنان.. الآن فقط أدركت كم أحبك.. وأنه لا حياة لي من دونك.. ".

أجاب "تهطل كلماتك برداً وسلاماً على قلبي.. يجب أن تخرجي من عنق الزجاجة شيئاً فشيئاً.. أحبك، ولن أتراجع.. لا تهتمي يا لامار.. اندملت جروحي الآن وقلبي وعقلي معك.. ولكن المسألة لم تعد أنا وأنت فقط".

"ماذا تقصد؟".

"أقصد أن القضية باتت قضية وجود. كل شيء يجب أن يتغير".

"إنهم يعدون لترتيبات زفافي من فراس".

"اصغ إلي جيداً، يا لامار، يجب أن تتركي القصر.. حاولي الفرار وسأساعدك".

"كيف؟"

"سنفكر بطريقة.. سنبقى على اتصال لنجد مخرجاً يجب أن تتركي القصر يا

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

لامار.. يجب أن تغادري القصر في أقرب وقت".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفصل العاشر

بعد جولة في مصنعي الحديد والأخشاب وصل أدهم الجمري عند الظهيرة بسيارته المرسيدس السوداء التي يطلق عليها الشبح قريباً من مبنى شركته التجارية الضخمة فاستوقفه مشهد جمهرة من العاملين والعاملات عند بوابتي الشركة والمصنع يتدافعون ويهتفون بكلمات لم يتبينها، وكان على رأسهم هادي يهتف والآخرون يرددون هتافه.

طلب أدهم الجمري من سائقه الاقتراب فسمع الحشد يردد "رجعوها.. رجعوها.. ما بنرجع لترجعوها". وكان هناك عدد من العاملين يصرخون ويحاولون تفريق التجمع. صاح أحدهم " هدا جنون.. رح يطردونا كلنا إذا واصلتو الإضراب.. "

وقال آخر "بدنا نطعمي ولادنا خبز.. أنتو شو رح تعطونا إذا خسرنا عملنا؟".

فرد هادي بعصبية "إذا كنتم لا تشعرون بالظلم وراضين بوضعكم وليس عندكم مطالب.. انفضوا عنا وغادروا المكان. أنتم أجبن من أن ترفعوا صوتكم.. يالله.. هيا اذهبوا.. لسنا بحاجة إليكم.. "

فقال ثالث غاضباً "نحن نريد أن نحافظ على عملنا، أيها المعتوه.. وأنتم متهورون وأغبياء.. ".

ما كان من هادي إلا أن انقض عليه ووجه إليه لكمة قوية على وجهه أدمته فرد له الرجل الصاع صاعين بتسديدة أقوى أوقعته أرضاً، فساد الهرج والمرج وانقسم الحشد إلى فريقين، أناس ضد وأناس مع. دخلوا في عراك شرس والحراس يحيطون بالجميع ويكيلون لهم الضرب بالهراوات إلى أن وصلت الشرطة وفرقت الجمع بالقوة.

ظل أدهم الجمري يتابع المشهد عن بعد وطلب من سائقه استجلاء حقيقة الأمر. ذهب السائق وعاد ليخبر الجمري بأن العاملين مضربون اعتراضاً على طرد فتاة تدعى "نداء" من العمل.

عندما ذكر السائق اسم نداء أيقن الجمري أنها الفتاة التي رآها في حفل افتتاح فرع للشركة في المدينة. تلك الفتاة التي سلبت لبَّه بجمالها وتركته يفكر فيها على مدى أيام، وطلب من المدير إحضارها إليه سراً لكنها رفضت طلبه بشدة وقالت إنها لن تكون أداة لإرضاء نزواته وإشباع غرائزه الحيوانية. فهُددت الفتاة بالقتل لو فتحت فمها بكلمة حول هذا الأمر، ثم كان عليها في نهاية المطاف أن تختار بصمت بين الفصل من العمل بتهمة الإهمال والأداء السيء أو تلبية طلب ولي نعمتها، واختارت الفتاة أن تخسر عملها.

وجم أدهم الجمري لبعض الوقت. بدأ يشتم رائحة تمرَّد وحراك. ظلت الأمور هادئة ومستقرة على مدى أعوام طويلة فما الذي يحدث الآن؟ "جعلناهم

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

يؤمنون أننا سبب وجودهم. زرعنا الخوف داخلهم وأجبرناهم على اليقين بقوتنا وضآلتهم، فما الذي يحدث الآن؟ ولماذا بدأت المياه الراكدة تتحرك وتنشر رائحتها الكريهة؟". جلس طويلاً في السيارة وراح يقلب في عقله أفكاراً كثيرة. "لا بد من تهديدهم بالفصل وحرمانهم من لقمة العيش. تخويفهم بالفقر والجوع. يجب أن نغذي صراعهم من أجل رغيف الخبز عندها لن يرفعوا رؤوسهم".

وصل أدهم إلى مكتبه وأجرى اتصالاً هاتفياً سريعاً:

"يجب أن نشدد المراقبة على العمال". كانت أول جملة قالها عند التخابر مع مدير المصنع.

"هددوهم بالفصل من العمل ما لم يعودوا إلى مكاتبهم وماكيناتهم.. لا ترحموا أحداً، هؤلاء لا يفهمون إلاَّ لغة العصا.. عند استمرار العصيان اعتقلوا المحرضين.. أريد استئصال المشاغبين.. لا أريد أي تهاون أو تقصير".

كان القلق بادياً على وجه أدهم لدى عودته مساء إلى المنزل. دخل غرفته على التو وانزوى فيها حتى صباح اليوم التالي عندما غادر إلى عمله.

قالت رزان لأمها وهي تستعد للخروج لقضاء سهرة مع أصدقائها:

"يبدو زوجك قلقاً. ما الخطب؟".

قالت داليا:

"لا شيء جديد. لا أرى شكل وجهه مختلف اليوم عما كان عليه من قبل. أبوكِ دائماً يلبس وجهه بالمقلوب.. ".

دخلت رزان الفندق وتوجهت إلى صالة الديسكو. كانت الموسيقى العالية تصدح في الأرجاء والصخب والضجيج يهزان المكان وثلة من أصدقائها احتلت حلبة الرقص. تقدمت نورا منها وسحبتها من يدها لتنضم إليهم. كانتا تتحدثان بصوت عالٍ لتتمكنا من سماع بعضهما بسبب الضجيج. سألتها رزان بصوت أشبه بالصراخ "هل سيأتي باسم؟".

"ربما" أجابت نورا وهي تهتز يمنة ويسرة.

بعد دقائق دخل باسم وجلس يحتسي كأساً من الجعة دون أن ينضم إلى المجموعة. كانت رزان ترمقه بين الفينة والأخرى ويتجاهل نظراتها أو يشغل نفسه بالنظر إلى الأضواء التي تبرق وتختفي في أجواء الصالة.

كان ميلها إليه واضح. تمنت أن يبادلها الشعور أو أن يخضع لإغراءاتها وخاصة المادية والسلطوية منها كما أخضعت كثيرين من قبله ثم طردتهم شر طردة عندما ملَّتهم أو اكتشفت نفاقهم، لكن باسم حرص على الدوام على تجنبها، وتعمد اقتضاباً في الحديث معها. وهذا ما كان يثير غضبها منه دون أن تظهر.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

خفت هدير الموسيقى قليلاً. اقتربت منه وقالت:

"هل وجدت عملاً؟".

أجاب بوجه خلت قسماته من أي تعبير:

"لا ليس بعد.. ".

"أستطيع أن أساعدكَ، إن شئت".

نظر إليها متفحصاً فتابعت:

"أبي يعرف مدراء جميع الشركات في البلد وبإشارة من إصبعه يمكنه توظيفك خاصة أن شهادتك من كلية التجارة وهي مرغوبة في كل مكان".

"شكراً، ولكني أفضل الاعتماد على نفسي في هذا الأمر".

"من دون واسطة صعب أن تجد وظيفة".

توقف الحديث هنا وتحلَّق الأصدقاء حول الطاولة بعضهم يمسح عرقه والبعض الآخر يحتسي البيرة أو يشرب الماء.

قال باسم فجأة:

"كان هناك إضراب وتظاهرة اليوم قرب إحدى الشركات التجارية الكبرى، هل سمعتم بها؟".

ركزت رزان انتباهها، فقال أحدهم: "ماذا؟ إضراب وتظاهرة في بلدنا؟ لا شك أنك تمزح.. لا بل إنك تهذي!".

قال باسم "لا.. بجد.. كان هناك تظاهرة ولكنها تفرقت بعد أن هددوهم بالفصل من العمل وربما ساقوا بعضهم للسجن".

قال شاب آخر وهو ابن تاجر ثري:

"والى أين تريد أن يأخذوهم؟ إلى المنتزه، يا حبيبي؟ وما سبب الإضراب؟".

قال شاب "لا بد أنهم تظاهروا من أجل أسعار الخبز".

قال آخر ضاحكاً "أو من أجل تغيير الحكم هاهاها".

قال ابن التاجر من جديد "هؤلاء رعاع.. ماذا تتوقع.. جوعى.. جوعى خبزاً وأكلاً".

فتهكم آخر "أو جوعى جنس".

ضج المكان بالضحك إلى أن قال باسم "هؤلاء تظاهروا ضد الظلم. من أجل فتاة فصلت من العمل تعسفياً.. حسب ما سمعت".

صمت الجمع ينظرون إلى بعضهم بعضاً فقالت نورا "وأخيراً.. الحمد لله.. والله معهم حق. أرباب العمل وأصحاب الشركات لا يرحمون أحداً ويعاملون الناس

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

كمحتاجين ومتسولين ويشيعون الخوف بينهم بل ويدوسون على كرامتهم".

راحت رزان تنقل عينيها بين الواقفين دون أن تفقه تماماً ما يتحدثون عنه.

قال أحد الشباب وهو ينظر إلى رزان بطرف عينه: "اصمتي هل تريدينا أن ننام الليلة في بيت خالتنا؟"

انتهى الحديث هنا ولحقت رزان بباسم وهي تراه يغادر الصالة مع انتهاء السهرة. استوقفته وعرضت عليه أن تقله بسيارتها لتأخر الوقت. لكنه اعتذر وقال "لا.. لا حاجة لذلك سأرافق نضال هو على طريقي".

قالت "تعال أريد أن أحدثك بأمر مهم".

صعد باسم إلى سيارة رزان متسائلاً في عقله عما إذا كان في رأس رزان أي شيء البتة يستحق الاستماع إليه، فهو لا يرى فيها سوى فتاة سطحية بعقل فارغ، لكنه مع ذلك أراد أن يجاملها هذه المرة ويصغي لما ستقوله فقال "هات ما عندك!".

قالت وهي تقود السيارة على طول الأوتوستراد باتجاه الساحة الكبيرة وسط المدينة:

"باسم، أشعر دائماً أنك تحاول تجنب الحديث معي بل تتجاهلني.. أنا أكنُّ لك مشاعر جميلة كم أتمنى أن تبادلني مثلها".

قال متلكئاً:

"نحن أصدقاء تربطنا مودة مثل الآخرين.. وأنا لا أفهم ما تقصدين بالمشاعر الجميلة".

"لا أظن أنك لا تحس بحبي لك منذ زمن طويل.. تعلم وتتجاهل، أليس كذلك؟".

التزم باسم الصمت. أوقفت رزان السيارة إلى جانب رصيف والتفتت إليه وراحت تتفرس في وجهه تحت ضوء المصابيح المعلقة على الأعمدة في الشارع الطويل، ثم وضعت يديها حول رقبته ولثمته من وجنته. أنزل باسم يديها المتشابكتين عن رقبته قائلاً:

"رزان يجب أن تفهمي أن الحب والعلاقات خارج أجندتي على الأقل في الوقت الراهن.. وأنا لا أريدك أن تضيّعي وقتك وتعيشي في أوهام ليس لها أساس"

"هل هذا يعني أنك لا تكن لي أي مشاعر الآن ولن يحصل هذا في المستقبل؟ هل يعني هذا أنك ترفض هذا الحب الذي أحمله لك؟".

"وهل الحب عرض للبيع والشراء؟ الحب علاقة متبادلة بين طرفين ولا يمكن أن يكون من طرف واحد.. يجب أن تفهمي هذا الأمر".

"يمكنني أن أوصلك إلى السماء.. يمكنني أن أجعل منك سيداً.. أن أجعلك

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

تتبوأ أعلى المناصب.. وأنت ترفض حبي؟".

"رزان لا تتحدثي بهذه الطريقة لأنني أمقتها ولا أريد ان أجرح شعورك.. ".

أخذت رزان تصرخ باكية "يا لك من إنسان مغرور! كيف يمكنك أن تتعالى علي هكذا؟ ألا تعرف أنا ابنة من؟ لو عرف أبي بمعاملتك لي لأودعك السجن، أتفهم.. ".

راحت رزان تقود السيارة بعصبية وسرعة فقال باسم متهكماً:

"أيتها الدلوعة.. كل شيء ممكن في هذا البلد. الحبس هو الحل دائماً هنا. ممكن أن يلقيني أبوك في السجن لسبب حتى أتفه من هذا. اسمعي، يا رزان أنا لا تخيفني سطوة أبيك. إياك أن تستخدمي هذا الأسلوب معي.. الحب لا يباع ولا يشترى بالمال أو المناصب.. الحب لا يكون بالتهديد والوعيد.. أنت يا رزان إنسانة غير ناضجة عاطفياً ولا فكرياً.. وأنا لا أريد أن أسبب لك ألماً أو أن أخدعك.. لهذا كنت صريحاً معك.. أرجوكِ.. توقفي هنا أريد أترجل..".

عندما عادت رزان إلى البيت كانت تستعيد في ذهنها كل ما حدث في تلك السهرة وتلوم نفسها لتصريحها بحب "باسم" وثورتها عليه ثم راحت تواسي نفسها بالقول "عشرات الشباب يتمنون إشارة من إصبعي، فلمَ أنا غاضبة؟ كل عاطفة يجب أن تمر مرور الكرام، لا أحد يستحق حبي و"باسم" لا يختلف عن هؤلاء الرعاع الذين يتحدث عنهم والدي.. ".

ثم تساءلت في نفسها عن قصة الظلم والطرد التعسفي والاحتجاج التي تناولها أصدقاؤها في السهرة. لم تعِ أو تفكر يوماً بمعنى هذه الكلمات، كانت هذه المفردات غريبة عنها تماماً. رددت "بتنا نسمع أشياء غريبة.. ". هذه الأمور خارج قاموسها الفكري ورزان لا تنظر إلى الناس سوى على أنهم عبيد في مزرعة أبيها بل هي تستغرب كيف تجرأ هؤلاء وجهروا بطلب حقوقهم.

رأت الضوء في غرفة لامار مضيئاً. نقرت الباب ونسيت كل ما حدث لها ودخلت قائلة "أما زلت مستيقظة؟".

هزت لامار رأسها إيجاباً فتابعت رزان "لا بد أنك تفكرين أو تستعدين لحفل زفافك من فراس في نهاية هذا الشهر.. ".

لامار لم تجب. أخفت امتعاضها وهي ترى ابتسامة ماكرة على وجه رزان أثناء مغادرتها الغرفة. كانت لامار تنتظر أن يخلد الجميع إلى النوم لكي تهاتف كنان لوضع خطة الهروب من القصر في أقرب وقت ممكن.

حددا الليلة التي سيتم فيها تنفيذ الخطة وبدأت دقات قلبها تتسارع مع تسارع الزمن واقتراب ليلة الحسم.

انخرط كنان على مدى الأيام التالية في حضور الاجتماعات التي نظمها هادي

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وبدأوا بكتابة المناشير وتوزيعها على العمال تحضهم على الخروج عن صمتهم والمطالبة بحقوقهم وإعادة من تم تسريحهم.

وفي ذات الوقت قرر كنان تغيير منزله وبدأ البحث عن مكان آمن بعيد يوفر له ولحبيبته الحماية فيصعب على فراس إيجاد طريقهما بعد أن تتمكن لامار من الهروب من القصر.

حددا تنفيذ الخطة بعد أربعة أيام. مرت الأيام الأربعة ثقيلة ومثقلة بالهم. كلاهما يعد الدقائق والثواني ودقات الساعة تتسارع مع دقات قلبيهما، وكل منهما يتخيل ما الذي سيحدث في أسوأ الأحوال. ماذا لو أحس عمها أو ابن عمها بتسللها ليلاً من القصر؟ ماذا لو انتبه أحد الحراس أثناء خروجها؟ ماذا لو طاردوهما بالسيارات؟ ماذا لو اكتشفوا أمرهما وأودعوا كناناً السجن؟ ماذا لو منعوها حتى من استخدام الهاتف أو وضعوا حارساً على باب غرفتها؟ وماذا لو أجبروها على الزواج؟ وماذا لو، ولكن رغم كل الهواجس والخوف لم يكن من سبيل سوى أن يمضيا في الخطة ويتركا مصيرهما في يد القدر.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفصل الحادي عشر

حملت لامار حقيبة ملابسها الصغيرة وتسللت من غرفتها تحت جنح الظلام إلى باب الفيللا الخلفي عن طريق المطبخ، فتحته بهدوء وتوقفت عنده. تسارعت دقات قلبها. الخوف ديدان تزحف داخل شراييها والباب فتحة إلى جهنم والجدران تجأر في العتمة والهدوء يصرخ في أذنيها. تدرك أن الجانب الآخر لحائط الخوف هو الحرية، ولكن كيف تقلب هذا الجدار؟ كيف تقفز فوقه؟ كيف تصبح في الجهة الأخرى منه؟ الهواجس ذباب يزن في رأسها. الخوف يشلُّها. لا تمضِ، يا لامار، إلى زمن آخر، لعلَّ في الزمن الآخر قبح أقبح. لا تمض إلى عالم افتراضي يتكشف وهماً. لا تمض إلى مجهول قاتل.

عدلت عن الخطة وقررت الرجوع إلى غرفتها. "لا أريد حرية تنتهي بدمار. لا أريد تمرداً يفضي إلى موت كنان. اليوم أوقن أني أحبه كثيراً، ولا أريد أن أخسره. إنه دربي إلى الانعتاق ولا أريد فقدان هذا الدرب. سيأكل انتشاؤهم الرخيص بالقوة نبله وحسه الرهيف. لا أريد أن ينطفئ الضياء في روحه بديجور ظلمهم وإسفافهم وهوسهم وتفاهاتهم. مفتاح الحرية هو التخلص من الخوف وأنا لا أملك هذا المفتاح. أنا أجبن من أن أبحث عنه وأغامر من أجله. سأبقى هكذا فراشة حب سجينة. أفضل ألف مرة من فراشة حزن سجينة".

كان كنان ينتظرها على أحرَّ من الجمر في جانب من الطريق الزراعي ومعه سيارة أطفأت أنوارها. انتظر طويلاً لأكثر من ساعتين. لم تأت، عاد إلى منزله خائباً والوساوس تملأ رأسه إلى أن رنَّ جرس الهاتف:

"كنان لم أستطع تنفيذ الخطة. إنني خائفة جداً. لو علموا بأمرنا سيقتلونك.. سيدمرون حياتي. وأنا لا أريدك أن تموت، يا كنان. هؤلاء لا رحمة في قلوبهم. أرجوك، يا كنان.. افهمني.. ".

صمتَ كنان، مُحبطاً.

يكاد يجن. كيف استطاع هؤلاء أن يستحوذوا على الحياة بسلطتهم الجهنمية؟ كيف تخاذلت لامار وهي الجرأة والتمرد والتحدي؟ خوفها عليه؟ وماذا عليه أن يفعل ليخرج بها وبنفسه من أتون هذا الصراع وهو لا يملك إلا حياة واحدة قصيرة؟ كيف له أن يعرف كيف يدير هذه الحياة وهو لم يعش حيوات سابقة ترفده بالخبرة أو يصيغ مقومات حرية تؤسس لحيوات قادمة. هكذا إذن.. أن نخضع للسلطة القاهرة.. أن تصير أخلاقنا وتصرفاتنا كما يريدها المتنفذون.. أن تمارس فئة ما سيطرة مطلقة على فئة ما مرة بالعنف ومرة بالقانون.. أن نولد بالحب ونتعلم الخوف.. أن نولد أحراراً ونتعلم كيف نكون عبيداً.. أن نولد بالفرح ونتعلم كيف نحزن.. الخوف هو مصدر الألم وهو مصدر البطش والظلم، ولا حياة دون الانتصار عليه.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

مرت أيام طوال واستحال اللقاء بينهما في غمرة الاستعدادات لزفاف لامار وفراس. كان كنان يقف بعيداً على التلة لساعات يرقب القصر والرائحين والغادين علّه يكحِّل العين بمرآها في يوم. هاتفته في ليل وأخبرته أن الاستعدادات اكتملت وأن يوم دفنها يقترب. بكت وبكى وبين تهدج الكلمات والأنفاس قال "لعل مستقبلاً أفضل ينتظرك مع فراس. ما أنا سوى إنسان فقير يعيش في القاع وأنت ترفلين بين النجوم فكيف لي أن أطالك! أريدك أن تكوني سعيدة وكل شيء آخر ليس مهماً. ليس لنا أن نعيش حلم سعادة في كوخ مسحور. هذه مجرد أوهام.. ليس لعشقي لك نِدٌ، لكنه العشق المستحيل.. نقشتُ ملامحكَ في قلبي وعقلي لكي لا أنسى وجهك الجميل إلى الأبد، يا لامار، إلى يوم رحيلي عن هذه الأرض".

ازدادت نحيباً ونشيجاً وازدادت دموعه فيضاناً. غرقت سماعتا الهاتفين بفيضان الدموع وغرقا في لجة الألم فدُفنا في قبر الصمت.

سعيدة؟ وكيف لها أن تكون؟ وكل ما فيها يشعر بالقرف من الجنس البشري. سعيدة؟ وكيف ومصيرها وحالها ومآلها بيد الآخرين؟ أي سعادة تلك التي تنتظرها وسيافها بالباب ينتظر. كنان يردد كلمات لا معنى لها ليواسيها ويواسي نفسه "سأضيع عمري سدى إذا كنت مع فراس.. كان توأم روحي فقتلها، وعادت لتحيا من خلال كنان. لن يمهلني الزمان.. ".

جاؤوا بثوب الزفاف الأبيض، حملته المربية إلى غرفتها ووضعته على سريرها لكي تجربه. ساعدتها مريم في ارتدائه، تأملته في مرآتها. ثوب فرحها، بياضه شحوب الموت وحفيف زركشاته لحن جنائزي. ثوبها كفنها الذي سيحملها إلى العالم الآخر.

سمعت نقرات على باب غرفتها، فتحته فرأت فراس لأول مرة في بابها. وقفت متسمرة أمامه دون أن تنبس بأي كلمة وراح يحدق في وجهها وثوبها ويحادثها دون أن يتكلم "أيتها الجميلة، يا من أكتشف بك ذاتي في كل يوم. أنت عذابي وضعفي، أنت وجهي الآخر ودائي ودوائي.. هذه الأرواح المتقدة بالحب والرفض والتحدي والحزن لا تلتقي أبداً.. أجرك إلى عربتي بالقوة في رفضك وكبريائك. سأظل نصف أعمى لأمتلئ بالانتصار.. سأبقى مجنوناً يصرخ ويصيح دون أن يزيل قناعه. أذلُّ الهوى في ذله لي وأحرس كنوزك الثمينة في أغواري.. هذا البياض المنتشر فيكِ حياتي وموتي.. هذا البياض مؤلم ظالم لا يرحم".

بعد صمت طويل قال "تبدين رائعة بفستان الزفاف، هل أعجبكِ؟".

أطرقت دون أن تجيب ثم نظرت ثانية في عينيه بقوة وأطالت النظر حتى خال عينيها الشهلاوين ثقباً أسود يبتلعه كلاً وأجزاء، يفتته ويقذف به إلى مهاوٍ بلا قرار. استعاد نفسه وغادر.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

قبل يوم من زفافها هاتفت كنان قائلة "سأهرب يا كنان.. انتظرني.. ".

ومرة أخرى حملت حقيبة ملابسها الصغيرة وتوجهت إلى باب الفيللا الخلفي تحت أستار الظلمة. توقفت ثم تنفست بعمق قبل أن تفتح باب المطبخ، خرجت بخطوات خفيفة على الأرض وقلب تسارعت دقاته حتى كاد يتوقف. أحست بالحقيبة تهتز في يدها المرتجفة ونظرت إلى الجهة التي يجلس فيها أحد الحراس فوجدته جالساً على كرسيه متكئاً برأسه على يده ومستغرقاً في النوم.

انسلت سريعاً بين أشجار الحديقة وتسلقت سورها الخلفي ثم قفزت إلى الشارع وأطلقت العنان لساقيها. كان كنان ينتظرها وخوفه عليها وشكوكه بألا تأتي تكاد تصيبه بالجنون. وقف في المكان نفسه على جانب من الطريق الزراعي عند سيارة أطفأت أنوارها. رآها راكضة نحوه من بعيد، فتح ذراعيه فرحاً يكاد لا يصدق، تلقاها لاهثة مرتجفة، ضمها إلى صدره بحرارة بثت الدفء في أوصالها إلى أن هدأت. صعدا سيارة الأجرة التي انطلقت بهما تنهب الأرض على الطريق السريع.

سألها "كيف جرت الأمور؟".

أجابت "كانت صعبة ومخيفة".

قال متفحصاً وجهها الشاحب "الحمد لله على نجاتك وخلاصك من ذاك المكان".

"إلى أين نحن ذاهبان؟".

"إلى عين الوادي.. ليست بعيدة عن المدينة. استأجرت بيتاً صغيراً سنحتمي فيه إلى حين".

كانت الشقة في الطابق الثاني من بناء يتألف من ثلاثة طوابق ضمن عدد من البنايات الأخرى القليلة التي تطل من خلفها على بساتين تنتصب فيها أشجار الزيتون بكثافة في إحدى الجهات وتمتد حقول القمح المترامية في جهة أخرى وتطل على شارع ضيق من أمامها.

تعانقا طويلاً عندما أصبحا داخل البيت، راح كنان ينظر في عينيها مبتسماً لا يصدق أنها تركت كل شيء وجاءت من أجل أن تكون معه وله، وكانت تتأمل وجهه بفرح غير مصدقة أنها هربت فعلاً من سجنها إلى الأبد.

قال وهو لا يزال يعانقها "هل أنا أحلم؟ هل أنت هنا معي فعلاً؟ . اشتقت إليك بعدد الدقائق والثواني التي مرت وأنت بعيدة عني.. اشتقت إليك في زحمة النهار وفي إيقاع الليل.. طيفك كان معي في الحل والترحال.. وجهك كان يرافقني في كل مكان.. في البيت والسوق وبين أصدقائي وأثناء الطعام وفي

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الصحو والمنام.. ماذا فعلت بي، يا لامار؟ ضيعتني خطفتني من نفسي.. صرت كالثمل أترنح لا أعرف وجهة لخطواتي.. ".

قالت ضاحكة "أيها الشاعر الرقيق لن أحدثك اليوم عن نيتشه لكي لا أفسد عبق الرومانسية الحالمة المنتشر في المكان. ولكن كل ما تنطق به يتغلغل إلى عمق أعماقي.. لا قدرة لي على تحمل ذلك، يا كنان، حتى أنني أشعر وكأني في حلم جميل لا أريد أن أصحو منه ".

"صدقيني، يا لامار، أنت الروح مني وفي كل مرة تبتعدين تقتلع روحي من جسدي وأحس أنني في حالة موت سريري".

"لا تتحدث عن الموت من فضلك.. ".

"لامار، .. هل تعرفين تلك الصخرة العالية التي كتب عليها كلمة اذكريني؟".

"أجل".

"أتخيل أن من نقشها كان متيماً مثلي. آه من العشق وما يفعله بالعشاق.. اذكريني كلما مررت بها، يا لامار.. ".

"كنان.. توقف لا تتحدث هكذا.. دعنا نستكشف المكان الذي سيضمنا معاً".

راحت تتجول في الشقة المتواضعة، جلست على إحدى الصوفايتين المزهريتن بألوان زرقاء وبيضاء ثم نهضت ودخلت غرفة النوم وتأملت السرير الذي يتسع لشخصين فأشارت بيدها إليه قائلة:

"هنا سأنام معك.. سننام متلاصقين ولن يفرقنا شيء بعد الآن" توقفت قليلاً ثم أردفت:

"يجب أن نعتاد النوم معاً، أليس كذلك؟".

"سأبقى الليل ساهراً دون حراك لكي لا أزعجك، أتأمل وجهك الجميل وأنت نائمة".

قالت ضاحكة "أتعني أنك لن تنام أبداً؟".

"وهل يستطيع النوم من كان بجانبه حورية من الجنة؟".

"ماذا حورية من الجنة؟ قلت لك نيتشه لا يؤمن بالجنة ولا بحورياتها. أنا إنسانة أرضية لم أهبط من السماء.. بإمكانك أن تقول عروسة بحر لو شئت لأني أجيد السباحة.. ".

قال مقهقاً "لا.. لا ليس من جديد.. عدنا إلى نيتشه.. يا إلهي.. إذن غداً سنذهب إلى المحكمة".

"لماذا؟".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

"لأتزوج من نيتشه".

ضحكا معاً كثيراً وقضيا جزءاً من الليل يقصان حكايا كثيرة رغم تعبهما، إلى أن غلبهما النوم.

وفي اليوم التالي ذهبا إلى المحكمة مع الصباح الباكر لعقد قرانهما قبل أن يكتشف عمها الأمر. لا بدَّ أن تصبح زوجة لكنان بشكل رسمي لتتمكن من تعزيز موقفها أمامهم وتضع الجميع أمام الأمر الواقع، هكذا كان رأي كنان الذي اقتنى لها فستاناً أبيض بسيطاً وباقة زهور بيضاء وجهز طاولة عشاء في البيت ليحتفلا منفردين بليلة زفافهما على ضوء الشموع.

سمعا نقرات خفيفة على الباب، نظرا إلى بعضهما متسائليْن. فتح كنان الباب بحذر فإذا بباقة زهور كبيرة تنتصب أمام وجهه يحملها صديقه هادي الذي اختبأ خلفها ومعه صديق آخر من مجموعة العصيان في المصنع ويدعى وليد وبصحبته زوجته أسماء.

دخل الأصدقاء مهللين ومباركين للزوجين حاملين وجبات جاهزة معهم للمشاركة في العشاء، وساد جو من المرح مع الضحكات والنكات والتعليقات ودارت أحاديث عن الزواج والحب.

قال وليد "علقت في الشبكة، يا كنان، ولا مخرج لك بعد اليوم".

أجاب كنان "ما أجمل أن أكون سمكة عالقة في شبكة حبيتي لامار إذا كانت هي الصياد، المهم أن نكون معاً في زورق واحد مبحرين في بحر الحب".

قال وليد "ولكن احذر يا كنان.. الحب وحده لا يصنع زواجاً ناجحاً.. ".

قال كنان ضاحكاً "أحاول أن أتأقلم مع نيتشه".

قالت لامار ضاحكة أيضاً "وأنا أحاول أن أعيش رومانسية روميو وقيس".

قال كنان "هناك من يقول إن الأشخاص يتزوجون لفشلهم في الحب إو إقامة علاقات مع الجنس الآخر أو من أجل الإنجاب. لكني أعتقد أن الزواج يكون أجمل عندما يتكلل بالحب".

قال وليد "هناك من العشاق من مُني زواجهم بفشل ذريع، يا صاحِ.. ".

قالت زوجته أسماء "في الوقت الحاضر تلعب المادة دوراً رئيسياً في نجاح الزواج أو فشله.. بصراحة معظم مشاكلنا أنا ووليد بسبب المادة وتوفير متطلبات الأولاد. وأنا أحثه دائماً على إيجاد عمل آخر للحصول على راتب أفضل من راتبه الذي لا يسمن ولا يغني من جوع".

قال وليد ضاحكاً "هل نسيتم النكتة الشهيرة، وهذه تخصك، كنان، .. واحد راح يخطب فتاة فسألته أمها، ماذا تعمل فقال: مدرس. قالت له: جاءنا شحاد ورفضناه

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ها هاها.. ".

ضحك الجميع فقال كنان "يا أخي افتح نوافذك على حديقة جميلة وسماء زرقاء وليس على فأل سيء. الله يصلحك.. ".

قال هادي مبتسماً "فعلاً.. كن فألا حسناً، يا وليد، العروسان عاشقان وهما يخوضان واحدة من أخطر مغامرات الحب في العصر الحديث.. الحب يستحق التضحية رغم كل شيء.. ".

لم يكتشف أهل القصر غياب لامار إلا بعد مرور ساعات طويلة فقد اعتادوا انزواءها في غرفتها معظم الوقت. اكتشفت الخادمة غيابها بعد أن نقرت طويلاً على بابها ولم تسمع جواباً فنقلت الخبر لأدهم وعائلته الذين كانوا يتناولون طعام الفطور.

وقع عليهم الخبر كالصاعقة، وهرع الخدم والحراس للبحث عنها في القصر والحديقة والطريق الزراعي وكل مكان توقعوا أن تكون فيه دون جدوى. وأولها بيت كنان الذي اختفى هو أيضاً.

مرَّ اليوم الأول والثاني والثالث ولا أثر للامار. جُنَّ جنون فراس وراح يضرب في الأرض بحثاً عنها "أين اختفت؟ كيف تجرأت أن تهرب من البيت قبل الزفاف.. الحفل.. والناس.. والمدعوون.. والاستعدادات.. لا بد أنها هربت مع كنان.. هذا الوغد.. سأنهيه.. لن تهنأ بالزواج منه ولن تنعم بقربه.. سأقضي عليه.. كيف يجرؤ على هذا التحدي.. لا بد أنه فقد عقله.. لا بد أنه معتوه.. ألا يعرف أي مصير أسود ينتظره؟".

اندلعت نيران في قلب فراس فهو يريد أن يحرق كل شيء. اكتشف اليوم أنه يحبها بجنون. كانت بين يديه وطارت على حين غرة. راح يتلمس أخطاءه، نفسه قادته إلى قدره. لم يتقرب منها يوماً بل ترك عنجهيته تقود حياته. تجاهلها إلى حد نسيت وجوده. يجب أن يعترف أنها أفلتت من القفص ولن تعود. يشعر بالهزيمة والانكسار، لأول مرة يهزم أمام امرأة ولأول مرة ترفضه امرأة. يكاد ينفجر غضباً وغيظاً. اليوم أيقن أنه يحبها إلى درجة البكاء. لامار رفيقة الطفولة وضحكة الماضي لا يمكن له أن يفقدها، كان دائماً مطمئناً إلى أنها هناك في غرفتها تنتظر من يناديها للفطور أو الغداء، كان دائماً مطمئناً إلى أنها لن تتمرد وستبقى راضية بما قسم لها. لم يتوقع كل هذا. لم يتوقعه.

بثَّ العمُّ عيونه في كل مكان وجابت سياراته وحراسه على مدى أسابيع شوارع العاصمة وضواحيها بحثاً عن لامار إلى أن يئسوا من العثور عليها.

ومع انتهاء العطلة الصيفية قرر كنان ألا يلتحق بمدرسته لمدة شهرين إلى أن تهدأ عمليات البحث عنهما، وكل ما فعله في تلك الفترة هو الاستمتاع ببقائه مع زوجته في البيت أو إعطاء دروس خصوصية لبعض الطلاب في المنطقة أو حضور

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

اجتماعات هادي ومجموعته بين فترة وأخرى.

"سمعنا عن إضراب قصير في مصنع الأخشاب. هل عرفتم بالخبر؟" قال هادي متفحصاً الوجوه.

قال مصعب "أنا سمعت عنه.. نقل لي الخبر ابن أختي.. هو يعمل في المصنع".

قال أمجد "بدأت منشوراتنا وعملنا يؤتي ثماره".

فقال كنان "ما الخطوة التالية؟".

فقال هادي "سنرفع عريضة لأدهم الجمري لينظر في أوضاعنا ويجد حلولاً لمشاكلنا".

قال كنان "سيكون مصيرها الإهمال.. ".

أجاب هادي "وماذا في ذلك.. على الأقل سيعرف الجمري أن صبر العمال قد نفذ وأن السيل قد بلغ الزبى وسيكون هذا إحراجاً له.. ".

قال مصعب "لا شيء يحرجهم.. متوحشون.. كالتسونامي يجتاحون كل شيء.. ".

توالت الاجتماعات على مدى الشهرين التاليين إلى أن جاءت تلك الليلة التي التقى فيها بعض الشباب ولم يكن كنان من ضمنهم لبحث كتابة العريضة وطريقة رفعها إلى أدهم الجمري، فإذا بمجموعة من العسكر يداهمون البيت ويقودونهم جميعاً إلى السجن

في الزنزانة حاول هادي استنتاج من وشى بهم وتذكر أولا أنه حث أحد زملائه ويدعى جابر على الالتحاق بهم في المجموعة ظناً منه أن جابر كان ناقماً على الوضع بسبب تأففه الدائم وشكواه المادية المستمرة. وقد أبدى جابر استعداده للتعاون وطلب العنوان لكي يأتي ويحضر اجتماعهم لكنه لم يفعل وأيقن هادي أنه ربما وشى به وأفشل الخطة. ثم راح ذهنه إلى شخص آخر يدعى سالم وهو نفس الشاب الصامت الذي لاحظ كنان قلة مشاركته في الأحاديث. لم يشكّ هادي في أمره إلى أن داهمهم الحرس في تلك الليلة ولم يكن سالم حاضراً الاجتماع الأخير أيضاً، وأيقن هادي أنه ربما كان مزروعاً بينهم لنقل أخبارهم إلى الجمري.

بدأ القلق يساور كنان خاصة أن سالم بات على علم بالمكان الذي يقطنه وأصبح من الضروري الخروج من عين الوادي وإيجاد مسكن آخر.

لكن هواجس كنان جاءت متأخرة، إذ لم يمض يومان على اعتقال هادي حتى وجد كنان نفسه وجهاً لوجه أمام فراس عندما فتح باب بيته الذي كاد يكسر بضربات العسكر. جاء فراس وبرفقته جيش جرار من الحرس.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

وبين صراخ لامار وتوسلاتها إلى فراس اقتادوا كنان خارج البيت مكبلاً. رمقها فراس بنظرة حادة قائلاً:

"اليوم سيرى عشيقك نتيجة فعلته. استعدي للعودة إلى القصر فوراً".

صرخت لامار في وجهه "إنه زوجي إن كنت لا تدري، ولن أتخلى عنه مهما حدث ولن أعود معك إلى القصر.. لا لن أعود إلى سجني أبداً".

وجم فراس قليلاً وكأنها طعنته بسكين ثم قال: " زوجك؟ هكذا إذن؟ اسمعي جيداً.. إذا عدت إلى القصر وطلقت منه وتم زواجنا. عندها فقط سينجو"

توسلت إليه والدموع في عينيها أن يترك كنان وشأنه ويتركهما يعيشان بسلام. أكدت له أنها لن تقترب من القصر ولا تريد شيئاً من ثروتها ولن تطالب بها،

"أعرف أنك تريد الزواج مني من أجل الثروة وأنا لا أريدها.. لا أريد شيئاً منها. أنت نسيتني.. ونسيت كل ما جمعنا في يوم.. ماذا تريد مني الآن؟ لماذا تفعل هذا بي؟ أرجوك اتركني وشأني.. اترك كنان.. دعنا نعيش حياتنا.. ولن تراني بعد اليوم.. ".

ساد صمت، كان فراس يتفتت في داخله وهو يرى دموعها "أيتها المجنونة لو تعلمين كم أحبك.. إنني أعشقك حتى الجنون. اليوم أريد أن أركع عند قدميك لأطلب مغفرتك عن كل شيء. علك تسامحينني وتعودين.. لا.. لا يا لامار لا تغلقي الباب في وجهي نهائياً.. كم كنت غبياً متعالياً أحمقاً، غبياً غبياً جداً".

خرج فراس من الصمت وقال "إنه متآمر وخائن ودأب على حضور اجتماعات مشبوهة ويخطط لزرع الفوضى والفتنة في مصانعنا وشركاتنا لهذا سينال جزاءه الذي يستحق. ثم من قال إني أريد الثروة؟ أنا أريدك أنت.. أنت حلمي منذ زمن بعيد يجب أن تفهمي هذا.. أنتِ لي مذ كنا أطفالاً ولن أسمح لنذل وغد أن يأخذك مني.. ".

"لا لن تحقق حلمك أنت واهم.. موتي أولاً قبل زواجي منك..".

قال "إذا ركبت رأسك ستندمين كثيراً.. فكري قبل أن تقرري.. إلى لقاء قريب.. ".

وقف كنان وحارسان يمسكان بذراعيه وفي عقله يردد "كيف يمكن لك يا كنان أن تستسلم ويقودك هؤلاء هكذا خانعاً ذليلاً؟ أين هي تلك الشجاعة التي ادعيتها، يا كنان، في معركتك ضد نفسك وضد الأصنام؟ هل كان كل شيء مجرد كلمات تتفوه بها وتنساها؟ عندما تواجه الحقيقة تجبن وتتراجع كالجرذ.. يالك من جبان.. أين هو ذاك البركان المتفجر داخلك؟".

على حين غرة تملص من قبضة الحارسين واستدار فجأة إلى الخلف سريعاً

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

موجهاَ لكمة قوية إلى وجه فراس لم يتوقعها أفقدته توازنه فترنح قبل أن يسقط على الأرض. ذهل الحراس وأمسكوا بكنان ثانية وهو يصرخ "إذا كنت رجلاً يا فراس قابلني وجهاً لوجه من دون حرسك وعدة حمايتك.. إنك أجبن من أن تفعل.. أنتم أقوياء فقط بكائنات مسخ مشوهة صنعتموها لحمايتكم تتكئون عليها كما العجائز تتكئ على العكازات.. هيا إذا كنت رجلاً واجهني من دون شياطينك!".

عندما سمع فراس هذه الكلمات نهض عن الأرض وأشار لحراسه بالابتعاد، وسرعان ما انهال على وجه كنان بقبضته، فرد الأخير اللكمة بأقوى منها وبدأت بين الشابين معركة حامية الوطيس بالأيدي والأرجل والأقدام، وفي خضم العراك صرخ فراس "أيها الحشرة الضارة.. تتطاول على أسيادك وتحلم بلامار وبالعز والثراء.. أفق من هذا الهذيان.. ".

ويرد كنان "اسمع يا ابن المافيا والعهر والسرقات، لامار ليست لك.. وتلك حقيقة لا ينتطح فيها عنزان"

وتتواصل اللكمات والشتائم، والمعركة بدت وكأنها من دون نهاية، وكنان يعجب في داخله من قوة اللكمات التي وجهها إلى فراس موقناً أن قبضته الحديدية إنما كانت روحه المعذبة.

كانت الدماء تسيل من أنف فراس بغزارة لكنها احتقنت في عين كنان المتورمة، والحرس متلهفون للتدخل، ولامار تصرخ وتتقدم قليلاً محاولة تفريقهما ثم تتراجع أمام حمم جسديهما، وكلما بدت المعركة على وشك الانتهاء استعاد كلاهما بعضاً من القوة وعادا من جديد للاقتتال إلى أن ارتميا أرضاً متهالكيْن.

نهض فراس متحاملاً على نفسه وجثا على ركبتيه وهو ينظر إليها بعينين دامعتين، ثم قال "لامار أنت لي.. أنت تعرفين هذا منذ زمن بعيد.. أنت حبي وماضي وذكرياتي وكل شيء.. لا يمكن لك أن تنسي.. هل نسيتني هكذا ببساطة؟ عودي لي، يا لامار.. سأتخلى عن كل شيء من أجلك.. لا أريد المال ولا الجاه ولا أي شيء.. أحبك وليس لك أن تنكري هذا الحب.. لا يمكن لي أن أعيش من دونك.. أنقذيني من نفسي.. مدّي لي يدك.. قولي شيئاً.. أرجوك قولي شيئاً.. لا تتركيني أحترق هكذا.. سامحيني.. أخطأتُ في كل شيء.. ساقتني الحياة بدهائها.. كنت جاهلاً ومغفلاً.. لم أكن أنا.. ".

انخرطت لامار في البكاء وخنقتها العبرات، ها هو حبها الكبير يعود ذليلاً منكسراً ليركع أمامها. تبكي هزيمته بحرقة.. ماذا تفعل وهي ترى أمامها فجأة فراساً الصغير باكياً يتوسل صحبتها؟ وكلما أمعن في رجائه كلما تمزقت روحها وتدفقت دموعها أنهاراً تكاد تغرقها وتغرقه، وكأنها على وشك أن تمد له يدها لكي ينجوا معاً إلى شاطئ رملي في جزيرة لم يطلْها عبث الإنسان، لتمسح على شعره وتجفف دموعه. وقفت وكأنها تقول له ارحل وهي تعني أن يبقى. يا

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

للوعتها وحيرتها.

كل هذا وكنان ينظر إلى المشهد واجماً لا يدري أين قذف به قدره في هذه اللحظات الحرجة التي لم يكن يتوقعها. فوجئ ببكاء لامار المتواصل دون أن تنطق بكلمة، إذن هي تحب فراساً وروحها التي طالما بحث عنها كانت في سمائه، يا لحظه العاثر.. أيحدث كل هذا وهو في طريقه إلى السجن! يا لسخرية القدر.. السجن أهون من هذه الحقيقة التي صفعته الآن، إلى أن سمعها تقول بعد لأيٍ:

"تأخرت يا فراس.. تأخرت كثيراً.. جئتَ بعد فوات الأوان.. لحظة ندمك مجرد ومضة برق سريعة لا تدوم.. جنحتْ سفينتكَ وغرقتَ وانتهى كل شيء".

وقف فراس وسار باتجاه سيارته حاني الظهر، وساق الحراس كنان إلى سيارة أخرى.

تابعت لامار السيارات بعينيها الدامعتين وكنان ينظر إليها من زجاج النافذة الخلفي وفي عينيه أسئلة كثيرة، ورآها تمسح دمعاتها وتلوح له "سأنتظرك يا كنان.. سأنتظرك.. ستعود لي.. ".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفصل الثاني عشر

قذفوا به داخل الزنزانة فوجد كنان نفسه بين مجموعة العصيان وعدد آخر من أشخاص لا يعرفهم. كان وجه هادي منتفخاً وعيناه متورمتين وتحيط بهما هالات دامية، غطت الجروح جبهته ويديه وعنقه. وكذا كان حال الشباب الآخرين. جلسوا على الأرض مطرقين ومزدحمين في غرفة لا يتجاوز طولها وعرضها عدة أمتار. ويتناوب هؤلاء فترات النوم، أذ يقف البعض ليسمحوا للآخرين بالاستلقاء والنوم لساعتين ثم ينهض هؤلاء ليتبادلوا مع من كانوا وقوفاً. انحشر كنان بينهم واقفاً ورأى أحدهم يضع قطعة قماش في الماء ليمسح جروح هادي التي كانت الأشد، وكان هادي جالساً متهالكاً يسند ظهره إلى الجدار. نظر كنان إلى صديقه جزعاً ثم جلس بجانبه وقال هامساً "ماذا فعل بك الأوغاد؟ ما كل هذه الكدمات والجروح؟"

قال هادي "هذه أول جولة والقادم أعظم.. ".

قال كنان "يا إلهي، كيف سننجو من هذا الكابوس؟"

قال هادي بابتسامة ضعيفة وهو يتفحص وجه كنان "ماذا أصاب عينك؟".

أجابه كنان "لا عليك، ليس الأمر مهماً".

عاد هادي ليقول "يا صديقي سيأتي الدور عليك يجب أن تكون صلباً ومتماسكاً". توقف قليلاً ثم تابع متهكماً "أعرف أنك إنسان رقيق وحساس ولكن في هذه الظروف لا مكان للرقة والوداعة.. يجب أن تكون قوياً.. أتسمع قوياً.. هذه المرة ستكون الأمور مختلفة وأشد وطأة. نحن مسجونون هنا بتهمة الإرهاب.. استطاع أدهم الجمري أن يتلاعب بقضيتنا".

جال كنان ببصره على النزلاء في الزنزانة فرأى شاباً يهز رأسه يمنة ويسرة ثم يصرخ بين الفينة والأخرى بكلمات مبهمة. يتوقف الشاب قليلاً عن الحركة ثم يعود ليضحك بصوت عال ويشير إلى السجناء قائلاً "مجانين مجانين.. أنتم كلكم مجانين.. أنتم أغبياء.. الله ليس هنا. أو تظنون أن الله هنا؟ لماذا تدعونه؟ . الله رحل من هنا منذ زمن بعيد.. متى سيعود الله؟ ها هاا ها.. ".

فجأة قذف الشاب بنفسه فوق المجموعة النائمة فنهض هؤلاء مذعورين ودفعوه بعيداً عنهم والشتائم تنهال عليه فيما غرق بعض الواقفين بالضحك وقال أحدهم "تسع وتسعون علة وهذا المجنون العلة المائة". وقف الشاب في مكانه ثانية واجماً صامتاً وسرعان ما أعاد العرض بعد دقائق ولكن هذه المرة حاملاً ملعقة يحركها بقوة إلى الأعلى ثم الأسفل ومردداً نشيد "بلادي بلادي فداك دمي.. موطني موطني..". صوب الملعقة على حين غرة نحو الشاب الواقف بجانبه ثم وضعها في رأسه قائلاً "أنتم الأعداء سنبيدكم واحداً واحداً.. سنذبحكم واحداً واحداً..". همس هادي في أذن كنان أن الشاب واسمه "أحمد" مسجون

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

منذ زمن طويل وتعرض للتعذيب الشديد حتى فقد عقله.

عاد كنان ليدقق النظر في المجموعة ورأى شاباً ملتحياً يقرأ بصمت في مصحف بين يديه. أتمَّ قراءة بعض الآيات ثم رفع رأسه مخاطباً المجنون "أيها المجنون الكافر إن لم تتوقف عن هذا الهذر سأقطعك إرباً.. ".

عاد الشاب ليحرك رأسه يمنة ويسرة دون أن يلتفت إلى الملتحي، فتابع هذا الأخير "إن الله فينا أيها الأخوة، نحن صورة منه وهذا امتحان كبير لنا سنخرج فائزين بإذنه تعالى، ولا بد أن ينال المتسلطون على رقابنا جزاءهم".

فقال أحد الواقفين "إن الله لا ينظر في حالنا ولا يأبه لما نحن فيه".

فعبس الملتحي قليلاً ثم قال "بل هو فيك يتألم لألمك ويحس بما تعانيه. إذا كنت تشعر بالخوف فهذا لأنك تتخلى عن الله في نفسك، وعندما تكون مفعماً بالشجاعة فهذا يعني أن الله قوي فيك. يا شباب، لا تيأسوا من رحمة الله هو لا ينسى عباده المخلصين والمؤمنين والأقوياء.. ".

ساد صمت لبرهة فقال أحدهم "إن الطريق للحصول على حقوقنا تبدو شائكة وشبه مستحيلة.. "

فرد الملتحي "فقط بالعودة الى الله يمكننا أن نرفع الظلم.. ماذا يفعل الناس اليوم؟ هم يتبعون نهج الكفار وبدعَهم لهذا ابتعدوا عن الله فابتعد الله عنهم"

قال شاب آخر "نحارب الفساد برفع الصوت وليس بالدين. ثم ماذا يفعل رجال الدين من أجل رفع الظلم عنا؟ إنهم يكفِّرون الناس. لا يمكن لأحد الإعتراض حسب مفهومهم.. لأن الأوامر والقوانين في عرفهم مصدرها الله. فكيف تعارض الله؟".

نهض الملتحي من مكانه فجأة وهجم على الشاب وراح يكيل له اللكمات وهو يقول "أتريد أن تعترض على أمر الله ايها الكافر؟ فرد الشاب اللكمات بالمثل وهو يصيح "انظروا هذا مثال حي عنكم أيها المتطرفون المجانين..".

تواصل العراك بين الشابين وطالت اللكمات العديد من الواقفين والجالسين. وراح المجنون يقفز في مكانه ويلوح بيديه وهو يصيح "اضرب... اضرب الأعداء نحن سننتصر.. نحن سننتصر".

وتدخل الجمع لتفريق الشابين ثم دخل حراس وجروهما خارجاً.

بعد يوم اقتادوا كنان إلى غرفة التعذيب. جروه معصوب العينين بين الردهات الطويلة. كان السجن مدينة رعب موحشة قاتمة داخل المدينة. كل شيء فيه غربة نفسية وأسى ما بعده أسى ووحدة وانسلاخ عن العالم الخارجي. رسمت تجربته حدوداً بعيدة تفصل البشر عن عالم الحق، وحفرت في أعماق روحه شكوكاً وجراحاً لن تلتئم. كل ما في الخارج وهم وأكاذيب وتلك حقيقة أخرى

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

غيبها البشر.

كان يشهد العذاب والمعذبين فتتقيح عيناه وتتشظى روحه. يسمع صراخه وصراخهم كالمسامير تخز أذنيه وأطرافه فتحرمه النوم في الليالي الحالكة وفوق فراش أجرب ترتع فيه كل أنواع الحشرات. ولطالما كان الفزع والألم تجربة عقاب أكبر من تحمله جعلته يهتز ويتداعى قبل أن يغمى عليه ويتهاوى إلى الأرض مثل كيس فارغ.

كتب إلى لامار "اليوم لم أمت أيضاً، يا لامار. لو ترين ما فعلوا بجسدي. إي لامار، لم يبق مني اليوم سوى صوتي يحمل جسدي الواهن. لم يبق سوى الصوت. أسمع أصوات المعذبين في الجدران. آه يا لامار.. تتفتت الجدران صرخات وتنشق الأرض تأوهات وأنات.. الردهات دماء زرقاء.. دماؤهم زرقاء وسحناتهم حقد أسود.. الغرف مسابح دماء وتفجر أرجل وأيد وظهور وأعناق ورؤوس.. تفوح برائحة اللحم والدم.. ترتج بظلم الوجود.. يتفنن الجلادون في الهول.. ما أصعب أن تكتشف العدمية وأنت ما زلت حياً.. ما أصعب أن تسحقك القوة فتكره جسدك.. يستلبون إنسانيتك.. يريدون إلغاءك.. دنيئة هي الحياة بوحوشها. منحطة هي الحياة بجلاديها. إنها لعنة الخلق الأبدية.. أكره عبثيتك أيها الأقدار.. أيتها السماء.. هل تسمعين؟ لمَ خرجنا أجساداً معذبة من أديم الأرض؟ متى نعود إلى السماء أرواحاً حرة تسبح في الكون.. آه يا لامار، لو أن الله خلق لنا أجساداً لا تحس بالألم، كيف كانوا سيعذبوننا؟ لو أننا لا نعرف الإحساس بالألم.. لن يكون أمامهم سوى قتلنا وليتهم يقتلوننا رحمة بنا.. ليتهم يتحولون إلى بشر ويقتلوننا، ما يفعلونه بالمكبلين والعاجزين جبن وانحطاط ووحشية.. إي لامار، فكي وثاقك والقيود، ابصقي في وجه الجبناء واشيحي بنظرك عن رقصة القرود".

في حفلة تعذيب بالكهرباء، كانت روحه تقتلع من جسده مع كل صعقة، ويتهشم صوته كالزجاج شظايا دقيقة ويقذف به في أحضان الموت، والموت يرفضه فيقذف به ثانية إليهم ليغدو كرة بين الموت وبين معذبيه.

وبين الصحو والغيبوبة استطاع أن يميز بصعوبة وجهاً ينظر إليه بابتسامة ماكرة، وسمع الجلادين يقولون "سيدي نفذنا ما طلبت.. وهو الآن بين الحياة والموت، هل تريدنا أن نصفيه؟".

"لا ليس الآن!" قال أدهم الجمري.

إنه هو إذن أدهم الجمري. جاء يتفقد الخراف في مسالخه. ذاك الشيطان الذي يدير حلبة الموت في في كل ركن. ذاك التمساح السابح في دماء البشر هو الجحيم والعقاب في يوم الحساب على الأرض والناس في ملكوته ينهضون من اللحود حفاة عراة يسيرون في مستنقع من الصديد عيونهم شاخصة وأفواههم فاغرة. هل يعاقب الإنسان مرتين مرة على الأرض ومرة في السماء؟

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

رآى كنان أدهم الجمري لأول مرة.

سارعت لامار إلى القصر لتلتقي عمها. توسلت إليه أن يطلق سراح كنان وراحت تقسم أنها لا تريد شيئاً من ثروتها وكل ما تريده هو أن تكون مع زوجها ولا شيء آخر قالت "كنان إنسان بريء، وهو شاعر رقيق، انضم إلى الشباب دفاعاً عن حقوقهم وللمطالبة بإعطائهم فرصة للحياة الكريمة.. ".

قال عمها الذي كان فراس يقف إلى جانب طاولته في غرفة المكتب يتأملها عابساً:

"لقد تمردتِ وتحديتِ وهربت من القصر وجلبت العار لنا دون أن يهتز لك طرف، وها أنت الآن تتوسلين بل تدافعين بكل وقاحة عن كلب متآمر وتريدين إخراجه من السجن. ألم يخطر في بالك أن ما فعلته شيء خطير وكبير جداً لا يمكن غفرانه؟ ألم يخطر في بالك أن بإمكاني الآن أن أودعك السجن مثله إلى الأبد؟ . لقد تعدت جرأتك ووقاحتك الحدود. هذا عوضاً أن تكوني ممتنة لعمك الذي عشت في كنفه وأشرف على تربيتك وعشت في قصره كالأميرات.. ".

قالت وعيناها تسكبان الدموع "أقدر تربيتك لي، لكنكَ كنتَ، يا عمَّاه، جدار خوف في وجهي واليوم هدمتُ هذا الجدار، كنتَ قيداً في معصمي واليوم كسرتُ هذا القيد، كنت سجني واليوم تحررتُ منك. في هذا القصر لم أذق يوماً طعم الحنان والعطف.. كنت وحيدة.. مهملة.. أشبه بطائر في قفص ذهبي.. كنت دائماً أبحث عن حريتي إلى أن اهتديت إلى طريقها"

"مع هذا الكلب، أليس كذلك؟ كيف ترفسين حياة الرفاهية ونعمة الراحة والاستقرار؟".

"لا تقل عنه كلب. إنه إنسان نبيل وشريف، إنه زوجي وأنا أحمل طفله في أحشائي وسأتابع طريقي معه مهما حدث".

خبط فراس جبهته بيده واستدار إلى النافذة بعصبية وارتفع صوت عمها وخبط على طاولته ثم نهض باتجاهها وراح يكيل لها الصفعات على وجهها،

"وحامل أيضاً! تحملين طفل هذا الوغد؟ هل جننتِ؟ هل أصبت بلوثة في عقلك؟ إنك تقامرين.. إنك تعبثين.. الأفضل لك أن تتخلصي من هذا الجنين فوراً وتعودي إلى القصر وإلى حياتك الطبيعية لأنه لا أمل لك من كنان.. كنان انتهى.. ".

أمسك بشعرها وراح يلوحها يمنة ويسرة وكفه تنهال على وجهها وجسدها كسوط من نار دون توقف إلى أن أدمى فمها وكادت تسقط مغشياً عليها. تدخل فراس محاولاً إبعاد أبيه عنها وهو يقول "توقف.. يا أبي، .. توقف.. يكفي كل هذا.. يكفي.. ".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

خلصها فراس من بين يديه فارتمت أرضاً ثم أمسك بيدها وساعدها على النهوض وصوت أبيه يلعلع في المكان "إذا لم تفعلي ما أقول.. لا أريد أن أرى وجهك بعد اليوم، أتسمعين؟ هيا اغربي عن وجهي قبل أن آمرهم باعتقالك؟". وفراس يقول "اذهبي.. هيا اذهبي في الحال..".

خرجت لامار من غرفة المكتب تجر قدميها وأذيال الخيبة ورأت داليا وابنتها رزان جالستين تنظران اليها شزراً، ثم أدارت داليا رأسها إلى الجهة الأخرى، فيما قالت رزان بنبرة حادة "سافلة".

مضى شهر والحياة جامدة متوقفة عند حدود شبه الموت. حدود لا يمكن تخطيها. حدود أشبه بسلاسل تطوق عنقها وتخنقها. الهواء حولها يتضاءل.. يكاد ينفذ.. ورصيدها في البنك ينفذ.. وقدرتها على التحمل تنفذ.. صمودها ينفذ.. لا تستطيع التنفس.. لا تقدر أن تنام.. لا شهية للأكل.. الجنين في بطنها.. اللوحة الرائعة التي رسمها كنان في أحشائها.. المستقبل النائم في رحمها.. الحياة الجديدة التي تتشكل داخلها.. يجب أن تعيش.. يجب أن تواصل.. لا أحد يعبأ بها.. الناس ماضون منشغلون بهمومهم. والزمن يمضي لا ينتظرها..

مر نحو شهرين وكانت رزان في طريقها إلى الجامعة بعد نجاحها في الشهادة الثانوية. عندما ترجلت من السيارة قريباً من بوابة الكلية اقترب منها رجلان يرتديان بزات رسمية ويخفيان ملامحهما بنظارات سوداء كبيرة. أطبق كل منهما بقبضته الحديدية على إحدى ذراعيها بقوة وقال أحدهما "إذا صدر عنك أي صوت ستقتلين على الفور. اصعدي إلى السيارة دون أن تلفتي الانتباه. ارتعدت رزان وكادت تموت خوفاً لكنها لم تجرؤ على القيام بأي رد فعل. صعدت معهما إلى سيارة سوداء كانت تقف إلى جانب الطريق.

سجنت رزان في غرفة ببيت قديم في منطقة نائية بعيداً عن العاصمة، وكان مختطفوها كلهم ملثمين، لم تتمكن من رؤية وجه أي منهم على مدى نحو أسبوع. كانوا خمسة أشخاص مدججين بالسلاح وكان ينضم إليهم ثلاثة أو أربعة آخرون ليوم واحد ثم يغادرون. أحاطوا بالبيت من جميع جهاته وتناوبوا على حراسته. كانت رزان تبكي وتتوسل اليهم أن يطلقوا سراحها وهي تسألهم "من أنتم؟ وماذا تريدون مني؟ ولماذا اختطفتموني؟". لكنها لا تلقى جواباً سوى كلمات تكررت على مسامعها "اخرسي أو اصمتي أو لا تفتحي فمك وإلا ستكون نهايتك.. " وفي كل مرة كان أحدهم يلقي إليها بطبق الطعام وهو يقول "كلي من الفتات الذي تركتموه للمهمشين" فلا تفهم ما يقصده ولا تدري عن أي شيء يتحدث.

تلقى أدهم الجمري مكالمة قال فيها المتحدث:

"اختطفنا ابنتك.. إذا أردت استرجاعها أطلق سراح مجموعة الشباب الذين اعتقلتهم على الفور وإلا فلن ترى ابنتك بعد الآن.. سنقتلها في الحال.. ".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

أسقط في يده، ويكاد يجن. من هؤلاء وكيف يتجرأون؟ لا يعقل أن يحدث له هو بالذات هذا الأمر؟ من يتجرأ على تحديه؟

جلس يتشاور مع ابنه فراس لساعات طويلة ثم اتصل بجهات عليا. وتم التوافق أخيراً على إطلاق سراح الشباب مقابل تخليص رزان.

تحول الشباب داخل الزنزانة إلى هياكل عظمية من قلة الطعام وشدة التعذيب. وكان هادي الأكثر معاناة وألماً لاتهامه بقيادة الحملة. تفننوا في تعذيبه. كشطوا جلد بطنه وكسروا أصابعه وعرضوه للصعق الكهربائي على مدى الساعات وأغرقوا رأسه بالماء. تفتح جلده وتقيحت جروحه من تعمد الإهمال، وكسرت عظامه إلى أن فقد قدرته على الحركة وصار عاجزاً عن المشي، ثم دخل في غيبوبة طويلة لم يصح منها أبداً إلى أن فارق الحياة.

أُطلق سراح الشباب الآخرين وبينهم كنان وعادت رزان إلى أهلها..

رحل هادي وبكاه الأصدقاء وبكاه كنان. كان يردد "أعدم تعذيباً وأعدمت معه كل نظريات حقوق الإنسان، واغتيلت الأخلاق وشعارات الإنسانية. يجب الإطاحة بمنظومة الثوابت التي وضعها البشر، تلك المنظومة التي يتبجحون بها ليست سوى كليشيهات فارغة ترددها المنظمات ووسائل الإعلام. الظلم والقوة السائدة هي مأساة البشر، إنها تعبير عن أنانية الإنسان الذي يحمي تلك الأنانية الشريرة بإخراج العنف من داخله فالإجرام ينتشر في أحشائه مثل المرض الخبيث.. ".

كانت لامار تمسح دموعها وكنان يحدثها عن التعذيب الذي تعرضوا له. قالت "كنت أسمع عن سطوة عمي أدهم الجمري ولكني لم أكن أصدق أن يصل الظلم والقسوة إلى هذه الدرجة.. إنهم مجرمون.. ".

قال كنان "مضى هادي وكتب بدمه كل شيء ليقرأه الآخرون..".

قالت "كانت أفكاره ترعبهم وتصيبهم بالحشرجة بل تعلق في بلاعيمهم وتخنقهم.. كانت أوراقه التي كتبها خطر عليهم لأنها تعني حذف كل ما سبق.. "

قال كنان وهو ينظر بعيداً في الأفق "الإنسان منظومة متصلة بالكون ليس لها بداية أو نهاية. قد يكون هادي أتى قبل أن يحين زمانه لكن نهايته ليست النهاية بل البداية.. ".

قالت "هناك أناس يولدون بعد موتهم.. والموت مؤلم ومبهج في آن معاً لأنه ينهي عالماً ويفتح عالماً جديداً.. أمثال هادي هم الكسب الوحيد للحياة.. يغادرون.. لكنهم يبقون العاصفة الهائجة التي أتت بالنار والمطر في آن".

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

الفصل الثالث عشر

الخريف يتنفس. يستنشق هواء الصيف الحار، يبتلعه ويرسله أنفاساً رطبة إلى الأرض تنداح فيها سحب البياض القطني وهمس النسائم مبشراً بعبوس شتائي قادم وسماء تستعد لارتداء السواد.

تدرجت الألوان بلمساته على الأوراق ما بين الأحمر والبرتقالي والذهبي، وأوراق قررت مغادرة أغصانها فتارة تتهادى إلى الأرض وتارة تبقى متراقصة في الهواء، تفرش الوجود ببساط أصفر متماوج يلقي سحراً وهدأة في التنهدات والوجوم.

وصلت لامار في حملها إلى الشهر السادس وكانت كل حركة من الجنين تمنحها وكنان سعادة غامرة.

خيم هدوء جميل على حياتهما لم يخل من توجس في أن يكون هدوء ما قبل العاصفة. وكان كل منهما يحاول طرد الهواجس أملاً في أن تستمر الحياة في وداعتها.

كانا يسمعان أحياناً عن إضراب أو تظاهرات في مصانع الجمري لكنهما قررا أن يظلا بعيدين عن كل مصادر القلق، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي خرجا فيه للاستمتاع بمناظر الطبيعة قرب بيتهما. راحا يتأملان الطبيعة بصمتها الحكيم ويغرقان في الألوان. قال كنان "سؤال لا يزال بي!".

سألته "ما هو؟".

"أين تهيم روحك اليوم، يا لامار؟".

أجابت مبتسمة "حولك أينما كنت. كن متأكداً.. لم يبق شيء من الماضي..".

"يسعدني أن أسمع هذا.. كم يريحني اكتمال هذا العشق.. لا ندري إلى أين تسير الأمور. ولكن كل ما يهمني الآن أن يأتي طفلنا بخير. لم أعد أريد شيئاً من هذه الحياة سوى الاعتناء بكما وتأمين حياة جيدة لكما.. ".

قالت لامار "أنتظره بفارغ الصبر.. أظن أنه سيشبهك.. وستكون عيناه خضراوين مثل عينيك". توقفت ووضعت يديها حول رقبته قائلة "أريد نسخة أخرى منك.. لا تكفيني واحدة.. ".

قال كنان "بصراحة أفضل أن تكون بنتاً تشبهك، أحب ألوانك الرائعة.. بياض بشرتك الجميل والعسل المذهب في شعرك وعينيك.. سأعلمها اللغة العربية والشعر وسأرسلها.. ". كان يريد أن يتم جملته فإذا بسيارة تتقدم نحوهما سريعاً، ترجل منها فراس وعدد من مرافقيه. صرخ فراس مصوباً مسدسه نحوهما:

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

"بوصلة العدالة في هذا العالم منحرفة بفعل القوة، يا لامار، أتسمعين؟ منحرفة.. استعد لنهايتك يا كنان! طلبنا منك أن تترك لامار وشأنها لكنك لم تفعل وواصلت التحدي، إذن خذ.. ".

راح الرصاص ينهمر كزخ المطر من فوهة المسدس صوب كنان الذي حمى بجسده لامار خشية أن تصيبها رصاصة طائشة إلى أن أفرغ فراس مسدسه وصار جسد كنان ثقوباً تنطلق منها نوافير الدماء في كل اتجاه. سقط على الأرض مضرجاً بدمائه، ولامار بين الصدمة والحقيقة تصرخ وتلطم وجهها ومسٌّ من الجنون أصابها. ألقت بجسدها فوقه واحتضنته بين ذراعيها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. حصانها رمح في المشهد. تحتضن رمح وتحتضن كنان. كان ينظر إليها محاولاً الكلام وهي تصرخ "لا لا توقف.. كنان.. كنان.. لا تمتْ أرجوك..".

تلتفت إلى فراس وصراخها يصدع الهواء الساكن وأنهار دموعها فيضان يجري في كل اتجاه "أيها المجرم.. أيها الحاقد.. لمَ قتلته؟ لم فعلت بي هذا؟ أكرهك يا فراس.. أكرهك، وكرهي لك ملء الأرض والسماء.. سأقتلك في ذاكرتي وكياني وكل ذرة من خلاياي.. أنت ميت الآن.. وكنان حي بي.. بل أنت متَّ منذ زمن بعيد.. وليس لك أن تعود.."

كان كنان ينظر إليها بعينين شاخصتين ونفحة من لحن تراتيل فيهما،

"خلقناكَ نصفك خالد ونصفك فانٍ، خلقناك نصفك أرضي ونصفك سماوي. خلقناك نصفك الفرح ونصفك الألم، خلقناك نصفك الروح ونصفك الجسد. أنت ما جئت إلى هذه الأرض. أنت هذه الأرض. ارقد بسلام في كل شبر منها. كن ماءها وشمسها ورياحها. خلقناك لتموت حياً في ترابها وتظل بذرة الحياة الكونية. ستظل بذرة الحياة الكونية الأبدية".

صور.. صور كثيرة تتزاحم.. لا تريدها أن تتلاشى.. تركض معه على الطريق الزراعي.. تعانقه فوق التلال.. تنادي اسمه وترمي به إلى الصدى فيعيده لها ترنيمة إيقاع عذبة.. يهديها شقائق النعمان قبلات تلثم شفتيها.. ترقص على أنغام نسيمه.. يتمرغ بتراب أرضها يضحكان ويضحك نيتشه. تتعلق بذاكرة الصور.. تتأرجح بخيوطها.. تتشبث بها.. تسقط بقوة إلى القاع.. وعيناها داخل الصور في السماء.

أغمض عينيه وتخضبت بدموعها وبدماء حبيبها التي غطت وجهها وثيابها وكفيها. تحدق في هول اللحظة بإمعان فلا تراها. أعيدوني إلى رحم أمي.. أعيدوني إلى اللاسمع واللارؤية واللاإدراك.. أعيدوني إلى حيث لم أكن. يحفر عقلها في إيقاع الدقائق والثواني يحاول أن يجره إلى الوراء فيحفر في اللازمن وفي العدم. الوقت يسير خطاً مستقيماً لا يرجع ولا يرحم. ليت الوقت يسير دائرياً لتتكرر اللحظات، لتعود السعادة. السعادة رغبة في التكرار. الوقت هنا في هذا المكان ليس دائرياً وليس مستقيماً. الوقت هنا توقف. توقف الزمن والأشياء. هنا

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

مات كل شيء.. هنا ترقص الشياطين فوق الجثث.. هنا تهب رياح السموم.. هنا تنحر الأفكار والأجساد بأبخس الإثمان.. هنا تُشتم أبخرة اللامعقول ويُسمع رنين القروش.. هنا تعلق الأجساد خرقاً بالية.. هنا مدينة الأبالسة والكوابيس التي لا يستفيق منها أحد.

غادر فراس سريعاً مع مرافقيه لا يلوي على شيء وهرول بعض الأشخاص إلى المكان وتجمعوا حولها يحاولون المساعدة وهي تنظر زائغة البصر والعقل إلى أن ارتمت بجانب كنان فاقدة الوعي.

غرقت لامار في ليلها العقلي، في شتاء الأرض وشتائها. لأول مرة تعيش العدمية والزوال. صار وجودها افتراضياً رغم وجودها. لا شيء يحجبها اليوم عن تلك العدمية التي دخلتها مرة يوم سقطت عن ظهر حصانها رمح. هنا في هذا المكان وفي هذه البقعة من الأرض ينتصر الشر أكثر ما ينتصر. لامار نيتشه قلبت اتجاه عقارب الساعة وقوانين الفيزياء الطبيعية والكيمياء البشرية. عمدت إلى السباحة عكس التيار لتهدم قيماً صاغها الإنسان ولم تكن تؤمن بها أصلاً. حاولت أن تبني سعادة على المخاطرة وأن تكون الإنسان المتفوق الذي لم يولد بعد، فتحطمت أمام جحافل الباطل تدوس الحق والجمال. هنا في هذه البقعة من الكون يكون الإنسان نكرة. هنا يربض الإنسان اللاإنسان. هنا ينتهي كل شيء ويحذف كل شيء، ربما من أجل أن يبدأ كل شيء.

كيف لها أن تعود من العدم! كم يصعب أن تعود من العدم. كنان ذهب روحاً وجسداً وهي ذهبت روحاً وبقيت جسداً تالفاً له قدمان مشلولتان، جسد تالفٌ يحمل روحاً وجسداً صغيرين..

في تلك الليلة جاءها كنان في الحلم، رأته على الطريق الزراعي يقترب منها مبتسماً ثم يعانقها طويلاً "أنا عائد يا حبيبتي.. أنا عدت يا حبيبتي لا تحزني.. أنا هنا.. غادرت زمن الظلم الأسود.. أنا معك سأكون.. حتى لو لم أكن.. "

كم هو رائع ذاك الإحساس العميق بالسعادة في الحلم.. هو الحقيقة.. اليقظة كذب.. اليقظة وهم.. اليقظة موت... اليقظة دمار.

في صباح كانت السحب السوداء تتلاطم وتهرول نحو الزمن القادم، انشق أديم السماء عن رتق كبير كاشفاً نقاء نادراً داخل الأجواء ما بعد العليا وحقيقة ما لا نرى.. هو الجسد الصغير المستقبل.. سيغدو مارداً..

عندما جاءها المخاض لتضع حملها كانت السماء تلقي بحملها من الأمطار، والرعود تزمجر والبرق يخطف الأبصار.

عندما جاءها المخاض كانت المدينة في مخاض عظيم وعسير. تصرخ لامار ألماً مع وصول حياة وتصرخ الحناجر من أجل حياة.. تصرخ ويصرخون..

في اللحظة التي ولد فيها كنان الصغير، كان أدهم الجمري في مكتبه يراجع

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

ملفات عندما دخل شخص وأفرغ رصاصتين في رأسه فخرَّ صريعاً. تمت تصفيته من قبل جهات عليا بعد أن انتهى دوره وفاحت رائحته، ونشر الخبر في الأنحاء على أنه انتحر، وسرعان ما حلَّ ابنه فراس في مكانه ليقود امبراطورية المال.

بعد شهر سمعت لامار نقرات خفيفة على بابها، فتحته فإذا هي مريم، مربيتها. عانقتها مريم طويلاً ثم قالت "لامار.. حبيبتي.. كم أفتقدك.. بحثت عنك طويلاً إلى أن اهتديت إلى مكانك.. جئتك بصورة والديك حملتها معي قبل أن أغادر القصر.. سأعود إلى بلدي.. كنت أعرف أنك تريدين استرجاعها، أليس كذلك؟".

هزت لامار رأسها إيجاباً. حملت مريم الوليد وقبلته ثم قالت "لم أعد أحتمل ذلك المكان من بعدك.. صار موحشاً ومظلماً.. كان لا بد أن أودعك قبل أن أرحل.. رعاك الله يا سيدتي وحفظ لك هذا الطفل الجميل.. اعتنِ بنفسك.. ".

نظرت لامار من نافذتها، وهي تضم كنان الصغير إلى صدرها، ورأت مريم تجر خطواتها ببطء في الشارع ثم تلوح لها بيدها مودعة. رفعت رأسها إلى السماء الرمادية المكفنة بالرماد واغرورقت عيناها بالدموع، ورأت من خلف دموعها وجه طفلها مبتسماً وعينيه الخضراوين تتبعان سرب عصافير صغيرة بأجنحة ملونة تطير نحو الشمس خلف الرماد.

بعد خمسة وعشرين عاماً شوهدت لامار وابنها كنان واقفين ذاهلين فوق التلة ينظران الفيللا تحترق وألسنة النار والدخان تتصاعد إلى السماء، وحولها حشود غفيرة تهتف وتتدافع وترميها بالقذائف الحارقة.

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.

E-KUTUB
Publisher of publishers
Amazon & Google Books Partner
No 1 in the Arab world
A company registered in England at
7513024
Email: ekutub. info@gmail.com
Website: www. e-kutub.com
,UK official office: 28 LINGS COPPICE
LONDON SE21 8SY
,Germany Office: In der Gass 10
,Niederwörresbach 55758
Rhineland-Pfalz
Tel: (0044)(0)2081334132

This PDF document was edited with **Icecream PDF Editor**.
Upgrade to PRO to remove watermark.